كتاب الإيمان الأوسط

لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية

والذي يقع في مجموع الفتاوى (640-7/461)

مع بقية مسائل الإيمان الموجودة في آخر الجزء السابع

قال الشيخ العالم العامل الورع الناسك ؛ شيخ الإسلام بقية السلف الكرام " أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الشامي - رحمه الله -:

تضمن حديث سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن " الإسلام " و " الإيمان " و " الإحسان " ؛ وجوابه عن ذلك وقوله في آخر الحديث: {هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم}. فجعل هذا كله من الدين. وللناس في " الإسلام " و " الإيمان " من الكلام الكثير: مختلفين تارة ومتفقين أخرى. ما يحتاج الناس معه إلى معرفة الحق في ذلك ؛ وهذا يكون بأن تبين الأصول المعلومة المتفق عليها. ثم بذلك يتوصل إلى معرفة الحقيقة المتنازع فيها ؛ فنقول: ما علم [بـ] الكتاب والسنة والإجماع وهو من المنقول نقلا متواترا عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بل هو من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام - دين النبي صلى الله عليه وسلم - أن الناس كانوا على عهده بالمدينة " ثلاثة أصناف ": مؤمن , وكافر مظهر للكفر , ومنافق ظاهره الإسلام وهو في الباطن كافر. ولهذا التقسيم أنزل الله في أول سورة البقرة ذكر الأصناف الثلاثة فأنزل أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين. وبضع عشرة آية في صفة المنافقين. فقوله تعالى: {هدى للمتقين} {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون} {أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون}: في صفة المؤمنين. وقوله: {إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} الآيتين: في صفة الكفار الذين يموتون كفارا. وقوله: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين}. الآيات في صفة المنافقين ؛ إلى أن ضرب لهم مثلين: أحدهما بالنار , والآخر بالماء ؛ كما ضرب المثل بهذين للمؤمنين في قوله تعالى: {أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها} الآية. وأما قبل الهجرة فلم يكن الناس إلا مؤمن أو كافر لم يكن هناك منافق فإن المسلمين كانوا مستضعفين فكان من آمن آمن باطنا

وظاهرا , ومن لم يؤمن فهو كـافر. فلما هـاجر النـبي صـلى الله عليه وسـلم إلى المدينة وصـار للمؤمـنين بها عز وأنصـار ودخل جمهور أهلها في الإسلام طوعا واختيـارا: كـان بينهم من أقـاربهم ومن غـير أقـاربهم من أظهر الإسـلام موافقة رهبة أو رغبة وهو في الباطن كافر. وكان رأس هـؤلاء عبد الله بن أبي ابن سـلول وقد نــزل فيه وفي أمثاله من المنــافقين آيــات. والقــرآن يــذكر المؤمــنين والمنــافقين في غــير موضع كما ذكــرهم في ســورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وسورة العنكبوت والأحــزاب. وكــان هــؤلاء في أهل المدينة والبادية كما قــال تعــالى: {وممن حــولكم من الأعــراب منــافقون ومن أهل المدينة مــردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم}. وكان في المنــافقين من هو في الأصل من المشركين وفيهم من هو في الأصل من أهل الكتاب. وسـورة الفتح والقتـال والحديد والمجادلة والحشر والمنـافقين. بل عامة السور المدنية: يذكر فيها المنافقين. قـال تعـالى في سـورة آل عمران: {يا أيها الذين آمنـوا لا تكونـوا كالـذين كفـروا وقـالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غـزى لو كـانوا عنـدنا ما مــاتوا وما قتلــوا} إلى قولـــه: {وليعلم الــذين نــافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعـوا} الآيـات. وقـال فيها أيضـا: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يـألونكم خبـالا ودوا ما عنتم} إلى قولــــه: {وإذا لقــوكم قــالوا آمنا وإذا خلـــوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتــوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور} {إن تمسسكم حسـنة تسـؤهم وإن تصـبكم سـيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملــون محيـط}. وقـال تعـالى في سـورة النسـاء: {ألم تر إلى الــذين يزعمــون أنهم آمنــوا بما أنــزل إليك وما أنـزل من قبلك يريــدون أن يتحــاكموا إلى الطــاغوت وقد أمــروا أن يكفــروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا} {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنـــزل الله وإلى الرســـول رأيت المنـــافقين يصـــدون عنك صــدودا} إلى قولـــه: {فلا وربك لا يؤمنــون حــتى يحكمــوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضـيت ويسـلموا تسليما} وقال: {فما لكم في المنافقين فئـتين والله أركسـهم بما كســبوا أتريــدون أن تهــدوا من أضل الله ومن يضــلل الله فلن تجد له سبيلا} {ودوا لو تكفـرون كما كفـروا فتكونـون سـواء فلا تتخــذوا منهم أوليــاء حــتى يهــاجروا في ســبيل الله فــإن تولــوا فخــذوهم واقتلــوهم حيث وجــدتموهم ولا تتخــذوا منهم وليا ولا نصيرا} {إلا الذين يصلون إلى قـوم بينكم وبينهم ميثـاق} الآيـات. وقـال: {بشر المنـافقين بـأن لهم عـذابا أليمـا} {الـذين يتخـذون

الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا} إلى قوله: {إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا} {الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم} إلى قوله: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا} {مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا} إلى قوله: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا} {إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما}. وقال تعالى في سورة المائدة: {يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك} وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم} إلى قوله: {فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين} {ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين}. وقال تعالى: {وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون} {وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون} وقال تعالى: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل} إلى قوله: {ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون} {ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون}. وأما سورة " براءة " فأكثرها في وصف المنافقين وذمهم ولهذا سميت: الفاضحة والمبعثرة وهي نزلت عام تبوك. وكانت تبوك سنة تسع من الهجرة وكانت غزوة تبوك آخر مغازي النبي صلى الله عليه وسلم التي غزاها بنفسه. وتميز فيها من المنافقين من تميز. فذكر الله من صفاتهم ما ذكره في هذه السورة. وقد قال تعالى في سورة النور: {ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين} إلى قوله:

{إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولـوا سـمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحـون} الآيـات. وقـال تعـالى في سـورة العنكبـوت: {ومن النـاس من يقـول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جـاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بـأعلم بما في صـدور العالمين} {وليعلمن الله الـذين آمنـوا وليعلمن المنـافقين}. وقـال تعــالى في ســورة الأحــزاب: {يا أيها النــبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما} وذكر فيه شـأنهم في الأحزاب. وذكر من أقوال المنافقين وجبنهم وهلعهم كما قـال تعالى: {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مـرض ما وعـدنا الله ورسوله إلا غرورا} إلى قولـه {قد يعلم الله المعوقين منكم والقـائلين لإخـوانهم هلم إلينا ولا يـأتون البـأس إلا قليلا} {أشـحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تـدور أعينهم كالـذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسـنة حـداد أشـحة على الخـير أولئك لم يؤمنـوا فأحبط الله أعمـالهم وكـان ذلك على الله يسـيرا} {يحسـبون الأحـزاب لم يـذهبوا وإن يـأت الأحزاب يودوا لو أنهم بـادون في الأعـراب يسألون عن أنبـائكم ولو كـانوا فيكم ما قـاتلوا إلا قليلا} وقـال تعـالى: {لئن لم ينته المنــافقون والــذين في قلــوبهم مــرض والمرجفــون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا} {ملعونين أينما ثقفـوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} إلى قولـه: {ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمـنين والمؤمنـات}. وقـال تعـالى في سـورة القتـال: {أم حسب الـذين في قلـوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم} {ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمـالكم} إلى ما في السـورة من نحو ذلـك. وقـال تعـالى في سـورة الفتح: {هو الــذي أنــزل الســكينة في قلــوب المؤمــنين لــيزدادوا إيمانا مع إيمـانهم ولله جنـود السـماوات والأرض وكـان الله عليما حكيمـا} {لیـدخل المؤمــنين والمؤمنــات جنــات تجــري من تحتها الأنهــار خالــدين فيها ويكفر عنهم ســيئاتهم وكــان ذلك عند الله فــوزا عظيما} {ويعذب المنـافقين والمنافقـات والمشـركين والمشـركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السـوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا} وقـال تعـالى في سـورة الحديد: {يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نـورهم بين أيـديهم وبأيمانهم بشـراكم اليـوم جنـات تجـري من تحتها الأنهـار خالـدين فيها ذلك هو الفـوز العظيم} {يـوم يقـول المنـافقون والمنافقـات للــذين آمنــوا انظرونا نقتبس من نــوركم قيل ارجعــوا وراءكم

فالتمسـوا نـورا فضـرب بينهم بسـور له بـاب باطنه فيه الرحمة وظـاهره من قبله العــذاب ينــادونهم ألم نكن معكم قــالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغـركم بالله الغـرور} {فـاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الـذين كفـروا مـأواكم النـار هي مـولاكم}. وقـال في سـورة المجادلـة: {ألم تر إلى الـذين نهـوا عن النجـوى ثم يعـودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسـول وإذا جـاءوك حيــوك بما لم يحيك به اللـــه}. إلى قولـــه: {ألم تر إلى الـــذين تولـــوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفـــون على الكذب وهم يعلمون} {أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم سـاء ما كـانوا يعملـون} {اتخـذوا أيمـانهم جنة فصـدوا عن سـبيل الله فلهم عـذاب مهين} إلى آخر السـورة. وقولـــه: {ما هم منكم ولا منهم} كقولـــه: {مذبـذبين بين ذلك لا إلى هـؤلاء ولا إلى هـؤلاء} وقال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: {مثل المنـافق كمثل الشـاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مـرة وإلى هـذه مـرة}. وقـال تعالى: {ألم تر إلى الذين نافقوا يقولـون لإخـوانهم الـذين كفـروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبــدا وإن قــوتلتم لننصــرنكم والله يشــهد إنهم لكــاذبون} {لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصـرون} {لأنتم أشد رهبة في صـدورهم من الله} الآية. وقد ذكر في سورة المنـافقين في قولـــه: {إذا جـاءك المنافقون قالوا نشـهد إنك لرسـول الله والله يعلم إنك لرسـوله والله يشـــهد إن المنـــافقين لكـــاذبون} إلى آخر الســـورة. و (المقصـــود) بيـــان كـــثرة ما في القـــرآن من ذكر المنـــافقين وأوصـافهم. و " المنـافقون " هم في الظـاهر مسـلمون وقد كـان المنافقون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم: يلتزمون أحكـام الإسلام الظـاهرة لا سـيما في آخر الأمر ما لم يلتزمه كثـير من المنــافقين الــذين من بعــدهم ؛ لعز الإســلام وظهــوره إذ ذاك بالحجة والسـيف تحقيقا لقولـه تعـالى: {هو الـذي أرسل رسـوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} ولهذا قال حذيفة بن اليمـان: - وكـان من أعلم الصـحابة بصـفات المنـافقين وأعيـانهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أسر إليه عام تبوك أسماء جماعة من المنافقين بأعيانهم فلهذا كان يقـال: هو صـاحب السر الذي لا يعلمه غيره. ويروى أن عمر بن الخطـاب لم يكن يصـلي على أحد حــتى يصــلي عليه حذيفة ؛ لئلا يكــون من المنــافقين الذين نهي عن الصلاة عليهم. قال حذيفة رضي الله عنه - النفاق اليــوم أكــثر منه على عهد رســول الله صــلى الله عليه وســلم.

وفي رواية: كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يسرونه واليوم يظهرونه - وذكر البخاري في صحيحه عن ابن أبي مليكة قال: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه وقد أخبر الله عن المنافقين أنهم يصلون ويزكون وأنه لا يقبل ذلك منهم. وقال تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا}. وقال تعالى: {قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين} {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون} وقد كانوا يشهدون مع النبي صلى الله عليه وسلم مغازيه كما شهد عبد الله بن أبي ابن سلول وغيره من المنافقين " الغزوة " التي قال فيها عبد الله بن أبي: {لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل}. وأخبر بذلك زيد بن أرقم النبي صلى الله عليه وسلم وكذبه قوم حتى أنزل الله القرآن بتصديقه. والمقصود أن الناس ينقسمون في الحقيقة إلى: " مؤمن " و " منافق " كافر في الباطن مع كونه مسلما في الظاهر وإلى كافر باطنا وظاهرا. ولما كثرت الأعاجم في المسلمين تكلموا بلفظ " الزنديق " وشاعت في لسان الفقهاء وتكلم الناس في الزنديق: هل تقبل توبته ؟ في الظاهر: إذا عرف بالزندقة ودفع إلى ولي الأمر قبل توبته فمذهب مالك وأحمد في أشهر الروايتين عنه وطائفة من أصحاب الشافعي وهو أحد القولين في مذهب أبي حنيفة: أن توبته لا تقبل. والمشهور من مذهب الشافعي: قبولها كالرواية الأخرى عن أحمد وهو القول الآخر في مذهب أبي حنيفة ومنهم من فصل. والمقصود هنا: أن " الزنديق " في عرف هؤلاء الفقهاء هو المنافق الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره سواء أبطن دينا من الأديان: كدين اليهود والنصارى أو غيرهم. أو كان معطلا جاحدا للصانع والمعاد والأعمال الصالحة. ومن الناس من يقول: " الزنديق " هو الجاحد المعطل. وهذا يسمى الزنديق في اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة ونقلة مقالات الناس ؛ ولكن الزنديق الذي تكلم الفقهاء في حكمه: هو الأول ؛ لأن مقصودهم هو التميز بين الكافر وغير الكافر والمرتد وغير المرتد ومن أظهر ذلك أو أسره. وهذا الحكم يشترك فيه جميع أنواع الكفار والمرتدين وإن تفاوتت درجاتهم في الكفر والردة فإن الله أخبر بزيادة الكفر كما أخبر بزيادة الإيمان بقوله: {إنما النسيء زيادة في الكفر} وتارك الصلاة وغيرها من الأركان أو مرتكبي الكبائر كما أخبر

بزيادة عذاب بعض الكفار على بعض في الآخـرة بقولــه: {الـذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب}. فهذا " أصل " ينبغي معرفته فإنه مهم في هـذا البـاب. فـإن كثـيرا ممن تكلم في " مسـائل الإيمـان والكفر " - لتكفـير أهل الأهـواء - لم يلحظوا هذا الباب ولم يميزوا بين الحكم الظاهر والباطن مع أن الفرق بين هذا وهذا ثابت بالنصوص المتواترة والإجمـاع المعلـوم ؛ بل هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام. ومن تـدبر هـذا علم أن كثيرا من أهل الأهـواء والبـدع: قد يكـون مؤمنا مخطئا جـاهلا ضالا عن بعض ما جـاء به الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وقد يكون منافقا زنديقا يظهر خلاف ما يبطن. وهنا " أصل آخر " وهو أنه قد جــاء في الكتــاب والســنة وصف أقــوام بالإســلام دون الإيمـان. فقـال تعـالى: {قـالت الأعـراب آمنا قل لم تؤمنـوا ولكن قولـوا أسـلمنا ولما يـدخل الإيمـان في قلـوبكم وإن تطيعـوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمـالكم شـيئا إن الله غفـور رحيم} وقـال تعـــالى في قصة قــــوم لـــوط: {فأخرجنا من كــــان فيها من المؤمـنين} {فما وجـدنا فيها غـير بيت من المسـلمين} وقد ظن طائفة من النـــاس أن هـــذه الآية تقتضي أن مســمى الإيمـــان والإسـلام واحـد. وعارضـوا بين الآيـتين ؛ وليس كـذلك ؛ بل هـذه الآية توافق الآية الأولى لأن الله أخـبر أنه أخـرج من كـان فيها مؤمنا وأنه لم يجد إلا أهل بيت من المسـلمين. وذلك لأن امـرأة لوط كـانت في أهل الـبيت الموجـودين ولم تكن من المخـرجين الذين نجوا ؛ بل كانت من الغابرين البـاقين في العـذاب وكـانت في الظـــاهر مع زوجها على دينه وفي البـــاطن مع قومها على دينهم خائنة لزوجها تدل قومها على أضيافه. كما قال الله تعـالى فيها: {ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامـرأة لـوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهمـا}. وكـانت خيانتهما لهما في الـدين لا في الفـراش. فإنه ما بغت امـرأة نـبي قط ؛ إذ " نكاح الكافرة " قد يجـوز في بعض الشـرائع ويجـوز في شـريعتنا نكاح بعض الأنواع وهن الكتابيات وأما " نكاح البغي " فهو: دياثــة. وقد صان الله النبي عن أن يكون ديوثا. ولهذا كان الصواب قول من قال من الفقهاء: بتحريم نكاح البغي حتى تتوب. و (المقصود) أن امـرأة لـوط لم تكن مؤمنة ولم تكن من النـاجين المخـرجين فلم تــدخل في قولـــه: {فأخرجنا من كــان فيها من المؤمــنين} وكـانت من أهل الـبيت المسـلمين وممن وجد فيه ولهـذا قـال تعـالى: {فما وجـدنا فيها غـير بيت من المسـلمين}. وبهـذا تظهر حكمة القرآن حيث ذكر الإيمان لما أخبر بـالإخراج وذكر الإسـلام لما أخـــبر بـــالوجود. وأيضا فقد قــــال تعــــالى: {إن المســـلمين

والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات} ففرق بين هذا وهذا. فهذه ثلاثة مواضع في القرآن. و " أيضا " فقد ثبت في الصحيحين {عن سعد بن أبي وقاص قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا ولم يعط رجلا. فقلت: يا رسول الله أعطيت فلانا وتركت فلانا وهو مؤمن. فقال: أو مسلم ؟ قال: ثم غلبني ما أجد فقلت: يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا وتركت فلانا وهو مؤمن فقال أو مسلم ؟ مرتين أو ثلاثا وذكر في تمام الحديث أنه يعطي رجالا ويدع من هو أحب إليه منهم ؛ خشية أن يكبهم الله في النار على مناخرهم}. قال الزهري: فكانوا يرون أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل فأجاب سعدا بجوابين " أحدهما ": أن هذا الذي شهدت له بالإيمان قد يكون مسلما لا مؤمنا. " الثاني ": إن كان مؤمنا وهو أفضل من أولئك فأنا قد أعطي من هو أضعف إيمانا ؛ لئلا يحمله الحرمان على الردة فيكبه الله في النار على وجهه. وهذا من إعطاء المؤلفة قلوبهم. وحينئذ فهؤلاء الذين أثبت لهم القرآن والسنة الإسلام ؛ دون الإيمان هل هم المنافقون الكفار في الباطن ؟ أم يدخل فيهم قوم فيهم بعض الإيمان ؟ هذا مما تنازع فيه أهل العلم على اختلاف أصنافهم. فقالت طائفة من أهل الحديث والكلام وغيرهم: بل هم المنافقون الذين استسلموا وانقادوا في الظاهر ولم يدخل إلى قلوبهم شيء من الإيمان. وأصحاب هذا القول قد يقولون الإسلام المقبول هو الإيمان ؛ ولكن هؤلاء أسلموا ظاهرا لا باطنا فلم يكونوا مسلمين في الباطن ولم يكونوا مؤمنين. وقالوا: إن الله سبحانه يقول: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه}. بيانه كل مسلم مؤمن فما ليس من الإسلام فليس مقبولا يوجب أن يكون الإيمان منه. وهؤلاء يقولون: كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن إذا كان مسلما في الباطن. وأما الكافر المنافق في الباطن فإنه خارج عن المؤمنين المستحقين للثواب باتفاق المسلمين. ولا يسمون بمؤمنين عند أحد من سلف الأمة وأئمتها ولا عند أحد من طوائف المسلمين. إلا عند طائفة من المرجئة وهم الكرامية الذين قالوا إن الإيمان هو مجرد التصديق في الظاهر. فإذا فعل ذلك: كان مؤمنا وإن كان مكذبا في الباطن وسلموا أنه معذب مخلد في الآخرة. فنازعوا في اسمه لا في حكمه. ومن الناس من يحكي عنهم أنهم جعلوهم من أهل الجنة وهو غلط عليهم. ومع هذا فتسميتهم له مؤمنا: بدعة ابتدعوها مخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وهذه البدعة الشنعاء هي التي انفرد بها الكرامية دون سائر مقالاتهم. قال الجمهور من السلف والخلف: بل هؤلاء الذين وصفوا بالإسلام

دون الإيمــان قد لا يكونــون كفــارا في البــاطن بل معهم بعض الإسلام المقبول. وهؤلاء يقولـون: الإسـلام أوسع من الإيمـان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا. ويقولون: في {قــول النــبي صلى الله عليه وسلم: لا يزني الزاني حين يزني وهو مــؤمن ولا يسـرق السـارق - حين يسـرق - وهو مـؤمن ولا يشـرب الخمر - حين يشـربها - وهو مـؤمن} إنه يخـرج من الإيمـان إلى الإسـلام ودوروا للإسـلام دارة ودوروا للإيمـان دارة أصغر منها في جوفها وقــالوا: إذا زنى خــرج من الإيمــان إلى الإســلام ولا يخرجه من الإسلام إلى الكفر. ودليل ذلك أن الله تبارك وتعالى قال: {قالت الأعــراب آمنا قل لم تؤمنــوا ولكن قولــوا أســلمنا ولما يــدخل الإيمـــان في قلـــوبكم وإن تطيعـــوا الله ورســـوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم} {إنما المؤمنـون الـذين آمنـوا بالله ورســوله ثم لم يرتــابوا وجاهــدوا بــأموالهم وأنفســهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} {قل أتعلمون الله بــدينكم والله يعلم ما في الســماوات وما في الأرض والله بكل شــيء عليم} {يمنــون عليك أن أســلموا قل لا تمنــوا علي إســلامكم بل الله يمن عليكم أن هــداكم للإيمــان إن كنتم صــادقين}. فقد قــال تعـالى: {لم تؤمنـوا ولكن قولـوا أسـلمنا ولما يـدخل الإيمـان في قلــوبكم} وهــذا الحــرف - أي (لمــا) - ينفى به ما قــرب وجــوده وانتظر وجــوده ولم يوجد بعــد. فيقــول لمن ينتظر غائبا أي " لما ". ويقــول قد جــاء لما يجئ بعــد. فلما قــالوا: {آمنــا} قيــل: {لم تؤمنوا} بعد بل الإيمان مرجو منتظر منهم. ثم قال: {وإن تطيعــوا الله ورسوله لا يلتكم} أي: لا ينقصكم من أعمالكم المثبتة (شــيئا أي: في هـــذه الحـــال ؛ فإنه لو أرادوا طاعة الله ورســـوله بعد دخـــول الإيمـــان في قلـــوبهم لم يكن في ذلك فائـــدة لهم ولا لغـيرهم ؛ إذ كـان من المعلـوم أن المؤمـنين يثـابون على طاعة الله ورسوله وهم كانوا مقـرين بـه. فـإذا قيل لهم: المطـاع يثـاب والمـراد به المـؤمن الـذي يعـرف أنه مـؤمن لم يكن فيه فائـدة جديدة. و " أيضا " فالخطاب لهؤلاء المخاطبين قد أخبر عنهم: لما يدخل في قلوبهم وقيل لهم: {وإن تطيعوا الله ورســوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا} ؛ فلو لم يكونوا في هذه الحـال مثـابين على طاعة الله ورسـوله لكـان خلاف مـدلول الخطـاب فـبين ذلك أنه وصف المؤمــنين الــذين أخــرج هــؤلاء منهم فقــال تعــالى: {إنما المؤمنــون الــذين آمنــوا بالله ورســوله ثم لم يرتــابوا وجاهــدوا بــأموالهم وأنفســهم في ســبيل الله أولئك هم الصــادقون} وهــذا نعت محقق الإيمـــان ؛ لا نعت من معه مثقـــال ذرة من إيمـــان كما في قولـه تعـالى: {إنما المؤمنـون الـذين إذا ذكر الله وجلت

قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون} {الــذين يقيمــون الصــلاة ومما رزقنــاهم ينفقــون} {أولئك هم المؤمنون حقـا} وقولـه تعـالى: {إنما المؤمنـون الـذين آمنـوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يسـتأذنوه إن الـذين يسـتأذنونك أولئك الـذين يؤمنـون بالله ورسـوله} ومنه قولـه صـلى الله عليه وسـلم: {لا يـزني الـزاني حين يـزني وهو مـؤمن}. وأمثـال ذلـك. فـدل البيـان على أن الإيمـان المنفي عن هؤلاء الأعراب: هو هذا الإيمان الـذي نفي عن فسـاق أهل القبلة الذين لا يخلدون في النـار بل قد يكـون مع أحـدهم مثقـال ذرة من إيمان ونفي هـذا الإيمـان لا يقتضي ثبـوت الكفر الـذي يخلد صاحبه في النار. وبتحقق " هذا المقام " يـزول الاشـتباه في هـذا الموضع ويعلم أن في المســلمين قســما ليس هو منافقا محضا في الدرك الأسفل من النار وليس هو من المؤمـنين الـذين قيل فيهم: {إنما المؤمنـون الـذين آمنـوا بالله ورسـوله ثم لم يرتـابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون}. ولا من الــذين قيل فيهم: {أولئك هم المؤمنــون حقــا} فلا هم منافقون ولا هم من هؤلاء الصادقين المؤمنين حقا ولا من الذين يدخلون الجنة بلا عقاب. بل له طاعات ومعاص وحسنات وسيئات ومعه من الإيمـان ما لا يخلد معه في النـار وله من الكبـائر ما يســتوجب دخــول النــار. وهــذا القسم قد يســميه بعض النــاس: الفاسق الملي وهذا مما تنازع الناس في اسمه وحكمه. والخلاف فيه أول خلاف ظهر في الإسلام في مسـائل " أصـول الـدين ". فنقول: لما قتل أمير المؤمـنين عثمـان بن عفـان وسـار علي بن أبي طالب إلى العراق وحصل بين الأمة من الفتنة والفرقة يـوم الجمل ثم يوم صفين ما هو مشهور: خرجت (الخـوارج المـارقون على الطائفتين جميعا وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بهم وذكر حكمهم قـال الإمـام أحمـد: صح الحـديث في الخـوارج من عشــرة أوجه وهــذه العشــرة أخرجها مســلم في صــحيحه موافقة لأحمد وروى البخاري منها عدة أوجه وروى أحاديثهم أهل السنن والمسانيد من وجوه أخـر. ومن أصح حـديثهم حـديث علي بن أبي طـالب وأبي سـعيد الخـدري ففي الصـحيحين {عن علي بن أبي طـالب أنه قـال: إذا حـدثتكم عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حـديثا فوالله لأن أخر من السـماء إلى الأرض أحب إلي من أن أكــذب عليه وإن حــدثتكم فيما بيــني وبينكم فــإن الحـرب خدعة وإني سـمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقــول: ســيخرج قــوم في آخر الزمـان أحـداث الأسـنان سـفهاء الأحلام يقولون من خـير قـول البرية لا يجـاوز إيمـانهم حنـاجرهم

يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتمـوهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة}. وفي الصحيحين {عن أبي سـعيد قـال: بعث علي بن أبي طـالب إلى النـــبي صـــلى الله عليه وســـلم من اليمن بذهيبة في أدم مقروض لم تحصل من ترابها فقال: فقسمها بين أربعة نفر فقال رجل من أصحابه كنا أحق بهذا من هـؤلاء قـال: فبلغ ذلك النـبي صـــلى الله عليه وســـلم فقـــال: ألا تـــأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صـباحا ومسـاء قـال: فقـام رجل غـائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلـوق الـرأس مشـمر الإزار فقـال: يا رسـول الله اتق الله فقـال: ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله قـــال: ثم ولى الرجل فقـــال خالد بن الوليد يا رســـول الله ألا أضـــرب عنقه ؟ فقـــال: لا: لعله أن يكون يصلي قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: إني لم أومر أن أنقب عن قلـوب النـاس ؛ ولا أشق بطـونهم قـال ثم نظر إليه وهو مقف فقال: إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية قـــال: أظنه قـــال: لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عـــاد}. اللفظ لمســلم. ولمســلم في بعض الطــرق عن أبي ســعيد {أن النــبي صلى الله عليه وسـلم ذكر قوما يكونـون في أمته يخرجـون في فرقة من الناس سيماهم التحليق ثم قال شر الخلق أو من شر الخلق يقتلهم أدنى الطـــائفتين إلى الحـــق} قـــال أبو ســـعيد: أنتم قتلتموهم يا أهل العراق وفي لفظ له: {تقتلهم أقـرب الطـائفتين إلى الحـــق} وهـــذا الحـــديث مع ما ثبت في الصـــحيح {عن أبي بكرة أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قـال للحسن بن علي: إن ابــني هــذا ســيد وسيصــلح الله به بين طــائفتين عظيمــتين من المؤمــنين} فــبين أن كلا الطــائفتين كــانت مؤمنة وأن اصــطلاح الطائفتين كما فعله الحسن كان أحب إلى الله سـبحانه ورسـوله صـــلى الله عليه وســـلم من اقتتالهما وأن اقتتالهما وإن لم يكن مـأمورا به فعلي بن أبي طـالب وأصـحابه أقـرب إلى الحق من معاوية وأصحابه وأن قتـال الخـوارج مما أمر به صـلى الله عليه وسلم ولذلك اتفق على قتالهم الصحابة والأئمـة. وهـؤلاء الخـوارج لهم أسماء يقال لهم: " الحرورية " لأنهم خرجـوا بمكـان يقـال له حـروراء ويقـال لهم (أهل النهـروان: لأن عليا قـاتلهم هنـاك ومن أصنافهم " الإباضية " أتباع عبد الله بن إباض و " الأزارقة " أتباع نافع بن الأزرق و " النجدات " أصحاب نجـدة الحـروري. وهم أول من كفر أهل القبلة بالـــــذنوب بل بما يرونه هم من الـــــذنوب

واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك فكانوا كما نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم " يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان " وكفروا علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ومن والاهما وقتلوا علي بن أبي طالب مستحلين لقتله قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي منهم وكان هو وغيره من الخوارج مجتهدين في العبادة لكن كانوا جهالا فارقوا السنة والجماعة ؛ فقال هؤلاء: ما الناس إلا مؤمن أو كافر ؛ والمؤمن من فعل جميع الواجبات وترك جميع المحرمات ؛ فمن لم يكن كذلك فهو كافر ؛ مخلد في النار. ثم جعلوا كل من خالف قولهم كذلك فقالوا: إن عثمان وعليا ونحوهما حكموا بغير ما أنزل الله وظلموا فصاروا كفارا. ومذهب هؤلاء باطل بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة فإن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق دون قتله ولو كان كافرا مرتدا لوجب قتله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {من بدل دينه فاقتلوه}. وقال {لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلام وزنى بعد إحصان أو قتل نفس يقتل بها} وأمر سبحانه أن يجلد الزاني والزانية مائة جلدة ولو كانا كافرين لأمر بقتلهما , وأمر سبحانه بأن يجلد قاذف المحصنة ثمانين جلدة ولو كان كافرا لأمر بقتله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلد شارب الخمر ولم يقتله بل قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري وغيره: {أن رجلا كان يشرب الخمر وكان اسمه عبد الله حمارا وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم وكان كلما أتي به إليه جلده فأتي به إليه مرة فلعنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله} فنهى عن لعنه بعينه وشهد له بحب الله ورسوله مع أنه قد لعن شارب الخمر عموما. وهذا من أجود ما يحتج به على أن الأمر بقتل الشارب في " الثالثة " و " الرابعة " منسوخ ؛ لأن هذا أتى به ثلاث مرات وقد أعيا الأئمة الكبار جواب هذا الحديث ؛ ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز فيجوز أن يقال: يجوز قتله إذا رأى الإمام المصلحة في ذلك فإن ما بين الأربعين إلى الثمانين ليس حدا مقدرا في أصح قولي العلماء كما هو مذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين ؛ بل الزيادة على الأربعين إلى الثمانين ترجع إلى اجتهاد الإمام فيفعلها عند المصلحة كغيرها من أنواع التعزير وكذلك صفة الضرب فإنه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال وأطراف الثياب بخلاف الزاني والقاذف فيجوز أن يقال: قتله في الرابعة من هذا الباب. و " أيضا " فإن الله - سبحانه - قال: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا

التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم}. فقد وصفهم بالإيمان والأخوة وأمرنا بالإصلاح بينهم. فلما شاع في الأمة أمر " الخوارج " تكلمت الصحابة فيهم ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم الأحاديث فيهم وبينوا ما في القرآن من الرد عليهم وظهرت بدعتهم في العامة ؛ فجاءت بعدهم " المعتزلة " - الذين اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري وهم: عمرو بن عبيد , وواصل بن عطاء الغزال وأتباعهما - فقالوا: أهل الكبائر مخلدون في النار كما قالت الخوارج ولا نسميهم لا مؤمنين ولا كفارا ؛ بل فساق ننزلهم منزلة بين منزلتين. وأنكروا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من أمته وأن يخرج من النار بعد أن يدخلها. قالوا: ما الناس إلا رجلان: سعيد لا يعذب أو شقي لا ينعم , والشقي نوعان: كافر وفاسق ولم يوافقوا الخوارج على تسميتهم كفارا. وهؤلاء يرد عليهم بمثل ما ردوا به على الخوارج. فيقال لهم كما أنهم قسموا الناس إلى مؤمن لا ذنب له وكافر لا حسنة له قسمتم الناس إلى مؤمن لا ذنب له وإلى كافر وفاسق لا حسنة له فلو كانت حسنات هذا كلها محبطة وهو مخلد في النار لاستحق المعاداة المحضة بالقتل والاسترقاق كما يستحقها المرتد ؛ فإن هذا قد أظهر دينه بخلاف المنافق. وقد قال تعالى في كتابه: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} فجعل ما دون ذلك الشرك معلقا بمشيئته. ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب ؛ فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره. كما قال سبحانه في الآية الأخرى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا} فهنا عمم وأطلق لأن المراد به التائب وهناك خص وعلق. وقال تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير} {جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير} {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور} {الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب}. فقد قسم سبحانه الأمة التي أورثها الكتاب واصطفاها " ثلاثة أصناف ": ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات وهؤلاء الثلاثة ينطبقون على الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل: " الإسلام " و " الإيمان " و " الإحسان ". كما سنذكره " إن شاء الله ". ومعلوم أن الظالم لنفسه إن أريد به

من اجتنب الكبـائر والتـائب من جميع الـذنوب فـذلك مقتصد أو ســابق فإنه ليس أحد من بــني آدم يخلو عن ذنب ؛ لكن من تاب كـان مقتصـدا أو سـابقا ؛ كـذلك من اجتنب الكبـائر كفـرت عنه السيئات ؛ كما قال تعالى: {إن تجتنبوا كبـائر ما تنهـون عنه نكفر عنكم سيئاتكم} فلا بد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعــود بالجنة ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا ؛ فإن النـبي صـلى الله عليه وسلم ذكر: أن ما يصـيب المـؤمن في الـدنيا من المصـائب مما يجزئ به ويكفر عنه خطايـاه كما في الصـحيحين عنه صـلى الله عليه وســلم أنه قــال: {ما يصــيب المــؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشـوكة يشـاكها إلا كفر الله بها من خطايـاه} وفي المســند وغـيره أنه {لما نـزلت هذه الآية: {من يعمل سوءا يجز به} قال أبو بكر: يا رسـول الله جاءت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال: يا أبا بكر ألست تنصب ؟ ألست تحــزن ؟ ألست تصــيبك اللأواء ؟ فــذلك مما تجـزون بـه}. و " أيضا " فقد تـواترت الأحـاديث عن النبي صـلى الله عليه وســلم في أنه يخــرج أقــوام من النـار بعد ما دخلوها وأن النبي صلى الله عليه وسلم يشـفع في أقـوام دخلـوا النـار. وهذه الأحاديث حجة على الطـائفتين: " الوعيدية " الـذين يقولـون: من دخلها من أهل التوحيد لم يخـــــــرج منها وعلى " المرجئة الواقفة " الذين يقولون: لا ندري هل يدخل من أهل التوحيد النار أحد أم لا كما يقـــول ذلك طوائف من الشـــيعة والأشـــعرية كالقاضي أبي بكر وغـــيره. وأما ما يـــذكر عن " غلاة المرجئة " أنهم قالوا: لن يدخل النـار من أهل التوحيد أحد فلا نعـرف قـائلا مشهورا من المنسوبين إلى العلم يذكر عنه هذا القول. و " أيضا " فـإن النــبي صـلى الله عليه وســلم قد شـهد لشـارب الخمر المجلـود مـرات بأنه يحب الله ورسـوله ونهى عن لعنته ومعلـوم أن من أحب الله ورسـوله أحبه الله ورسـوله بقـدر ذلـك. وأيضا فإن الذين قذفوا عائشة أم المؤمنين كان فيهم مسطح بن أثاثة وكـان من أهل بـدر وقد أنـزل الله فيه لما حلف أبو بكر أن لا يصله: {ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمســاكين والمهـاجرين في ســبيل الله وليعفـوا وليصـفحوا ألا تحبـون أن يغفر الله لكم}. وإن قيـل: إن مسـطحا وأمثاله تـابوا لكن الله لم يشـرط في الأمر بـالعفو عنهم والصـفح والإحسـان إليهم التوبـة. وكـذلك {حـاطب بن أبي بلتعة كـاتب المشـركين بأخبـار النــبي صـلى الله عليه وسـلم فلما أراد عمر قتله قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: إنه قد شـهد بـدرا وما يـدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملـوا ما شـئتم فقد غفـرت

لكم ؟}. وكذلك ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: {لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة} وهذه النصوص تقتضي: أن السيئات مغفورة بتلك الحسنات ولم يشترط مع ذلك توبة ؛ وإلا فلا اختصاص لأولئك بهذا ؛ والحديث يقتضي المغفرة بذلك العمل. وإذا قيل: إن هذا لأن أحدا من أولئك لم يكن له إلا صغائر لم يكن ذلك من خصائصه أيضا. وأن هذا يستلزم تجويز الكبيرة من هؤلاء المغفور لهم و " أيضا " قد دلت نصوص الكتاب والسنة: على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب. " أحدها " التوبة وهذا متفق عليه بين المسلمين قال تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} وقال تعالى: {ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم}. وقال تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات} وأمثال ذلك " السبب الثاني " الاستغفار كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {إذا أذنب عبد ذنبا فقال: أي رب أذنبت ذنبا فاغفر لي فقال: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم أذنب ذنبا آخر فقال أي رب أذنبت ذنبا آخر. فاغفره لي فقال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء قال ذلك: في الثالثة أو الرابعة} وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: {لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم}. وقد يقال على هذا الوجه الاستغفار هو مع التوبة كما جاء في حديث {ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم مائة مرة} وقد يقال: بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع وبسط هذا له موضع آخر فإن هذا الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يحكم به عام في كل تائب وإن لم يكن مع التوبة فيكون في حق بعض المستغفرين الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يمحو الذنوب كما في حديث البطاقة بأن قول: لا إله إلا الله ثقلت بتلك السيئات ؛ لما قالها بنوع من الصدق والإخلاص الذي يمحو السيئات وكما غفر للبغي بسقي الكلب لما حصل في قلبها إذ ذاك من الإيمان وأمثال ذلك كثير. " السبب الثالث ": الحسنات الماحية كما قال تعالى: {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات} وقال صلى الله عليه وسلم: {الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر} وقال: {من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر

له ما تقدم من ذنبه} وقال: {من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه} وقال {من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه} وقال: {فتنة الرجل في أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.} وقال: {من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه} وهذه الأحاديث وأمثالها في الصحاح. وقال: {الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب}. وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا الحسنات إنما تكفر الصغائر فقط فأما الكبائر فلا تغفر إلا بالتوبة كما قد جاء في بعض الأحاديث: " ما اجتنبت الكبائر " فيجاب عن هذا بوجوه. (أحدها): أن هذا الشرط جاء في الفرائض. كالصلوات الخمس والجمعة وصيام شهر رمضان وذلك أن الله تعالى يقول: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم} فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات وأما الأعمال الزائدة من التطوعات فلا بد أن يكون لها ثواب آخر فإن الله سبحانه يقول: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} {ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}. (الثاني): أنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر كما في {قوله صلى الله عليه وسلم: غفر له وإن كان فر من الزحف} وفي السنن {أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا قد أوجب. فقال: أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار.} وفي الصحيحين في {حديث أبي ذر وإن زنى وإن سرق.}. (الثالث): أن {قوله لأهل بدر ونحوهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم} إن حمل على الصغائر أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم. فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر لما قد علم أن الكفر لا يغفر إلا بالتوبة لا يجوز حمله على مجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر. (الرابع): أنه قد جاء في غير {حديث أن أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة فإن أكملها وإلا قيل: انظروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أكملت به الفريضة ثم يصنع بسائر أعماله كذلك}. ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب ؛ فإن ترك المستحب لا يحتاج إلى جبران ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول فعلم أنه يكمل نقص الفرائض من التطوعات. وهذا لا ينافي من أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة مع أن هذا لو كان معارضا للأول لوجب تقديم الأول لأنه أثبت وأشهر وهذا غريب رفعه وإنما

المعروف أنه في وصية أبي بكر لعمر ؛ وقد ذكـره أحمد في " رسـالته في الصـلاة ". وذلك لأن قبـول النافلة يـراد به الثـواب عليها. ومعلوم أنه لا يثاب على النافلة حـتى تـؤدى الفريضة فإنه إذا فعل النافلة مع نقص الفريضة كـانت جـبرا لها وإكمـالا لهـا. فلم يكن فيها ثـواب نافلة ولهـذا قـال بعض السـلف: النافلة لا تكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله قد غفر له ما تقـدم من ذنبه وما تـأخر وغـيره يحتـاج إلى المغفـرة. وتـأول على هذا قولـه: {ومن الليل فتهجد به نافلة لـك} وليس إذا فعل نافلة وضـيع فريضة تقـوم النافلة مقـام الفريضة مطلقا بل قد تكـون عقوبته على تـرك الفريضة أعظم من ثـواب النافلـة. فـإن قيل: العبد إذا نام عن صـلاة أو نسـيها كـان عليه أن يصـليها إذا ذكرها بالنص والإجماع. فلو كان لها بدل من التطوعـات لم يجب القضاء. قيل: هذا خطأ فـإن قيل هـذا يقـال في جميع مسـقطات العقـاب. فيقـال: إذا كـان العبد يمكنه رفع العقوبة بالتوبة لم ينه عن الفعل ومعلـوم أن العبد عليه أن يفعل المـأمور ويـترك المحظور ؛ لأن الإخلال بذلك سـبب للـذم والعقـاب وإن جـاز مع إخلاله أن يرتفع العقـاب بهـذه الأسـباب كما عليه أن يحتمي من السـموم القاتلة وإن كـان مع تناوله لها يمكن رفع ضـررها بأسباب من الأدوية. والله عليم حكيم رحيم - أمرهم بما يصـلحهم ونهاهم عما يفسدهم ثم إذا وقعوا في أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته بل جعل لهم أسـبابا يتوصـلون بها إلى رفع الضـرر عنهم ولهذا قيل: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس النـاس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله. ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب قال بعضهم لشيخه: إني أذنب قال: تب قال: ثم أعـود , قال: تب قال: ثم أعود , قـال: تب قـال: إلى مـتى قـال: إلى أن تحزن الشيطان. وفي المسند عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {إن الله يحب العبد المفتن التـواب}. وأيضا فـإن من نام عن صلاة أو نسيها فصلاته إذا اسـتيقظ أو ذكرها كفـارة لها تـبرأ بها الذمة من المطالبة ويرتفع عنه الـذم والعقـاب ويستوجب بذلك المدح والثواب وأما ما يفعله من التطوعـات فلا نعلم القـدر الـذي يقـوم ثوابه مقـام ذلك ولو علم فقد لا يمكن فعله مع سائر الواجبات ثم إذا قدر أنه أمر بما يقوم مقام ذلك صـار واجبا فلا يكـون تطوعا والتطوعـات شـرعت لمزيد التقـرب إلى الله كما قـال تعـالى. في الحـديث الصـحيح: {ما تقـرب إلي عبـدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يـزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافل حتى أحبه} الحديث فإذا لم يكن العبد قد أدى الفـرائض كما أمر لم يحصل له مقصـود النوافل ولا يظلمه الله فـإن الله

لا يظلم مثقـال ذرة بل يقيمها مقـام نظيرها من الفـرائض كمن عليه ديون لأناس يريد أن يتطوع لهم بأشياء: فإن وفاهم وتطـوع لهم كان عادلا محسنا. وإن وفـاهم ولم يتطـوع كـان عـادلا , وإن أعطاهم ما يقوم مقـام دينهم وجعل ذلك تطوعا كـان غالطا في جعله ؛ بل يكون من الواجب الذي يستحقونه. ومن العجب أن " المعتزلة " يفتخرون بـأنهم أهل " التوحيد " و " العـدل " وهم في توحيـدهم نفـوا الصـفات نفيا يسـتلزم التعطيل والإشـراك. وأما " العـدل الـذي وصف الله به نفسه " فهو أن لا يظلم مثقـال ذرة وأنه: من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شـرا يره وهم يجعلـون جميع حسـنات العبد وإيمانه حابطا بـذنب واحد من الكبـائر وهـذا من الظلم الـذي نـزه الله نفسه عنه فكـان وصف الرب سبحانه بالعدل الذي وصف به نفسه أولى من جعل العدل هو التكذيب بقدر اللـه. (الخـامس): أن الله لم يجعل شـيئا يحبط جميع الحسـنات إلا الكفر كما أنه لم يجعل شـيئا يحبط جميع السـيئات إلا التوبـة. و " المعتزلة مع الخـوارج " يجعلـون الكبـائر محبطة لجميع الحسـنات حـتى الإيمـان قـال الله تعـالى: {ومن يرتـدد منكم عن دينه فيمت وهو كـافر فأولئك حبطت أعمـالهم في الـدنيا والآخـرة وأولئك أصـحاب النـار هم فيها خالـدون} فعلق الحبـوط بـالموت على الكفر وقد ثبت أن هـذا ليس بكافر والمعلق بشرط يعدم عند عدمه. وقـال تعـالى {ومن يكفر بالإيمـان فقد حبط عملـه} وقـال تعـالى لما ذكر الأنبيـاء: {ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهـديناهم إلى صـراط مسـتقيم ذلك هـدى الله يهـدي به من يشـاء من عبـاده ولو أشـركوا لحبط عنهم ما كـانوا يعملـون} وقـال: {لئن أشـركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين} مطابق لقولـه تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشـرك بـه}. فـإن الإشـراك إذا لم يغفر وأنه موجب للخلود في النار لـزم من ذلك حبـوط حسـنات صـاحبه , ولما ذكر سـائر الـذنوب غـير الكفر لم يعلق بها حبـوط جميع الأعمـال , وقولـه: {ذلك بـأنهم اتبعـوا ما أسـخط الله وكرهـوا رضـوانه فأحبط أعمـالهم}. لأن ذلك كفر , وقولـه تعـالى: {لا ترفعوا أصواتكم فـوق صـوت النـبي ولا تجهـروا له بـالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشـعرون} لأن ذلك قد يتضمن الكفر فيقتضي الحبوط وصاحبه لا يدري كراهية أن يحبط أو خشـية أن يحبط فنهـاهم عن ذلك لأنه يفضي إلى الكفر المقتضي للحبـوط. ولا ريب أن المعصـية قد تكـون سـببا للكفر كما قال بعض السلف المعاصي بريد الكفر ؛ فينهى عنها خشـية أن تفضي إلى الكفر المحبط ؛ كما قـال تعـالى: {فليحـذر الـذين

يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة} - وهي الكفر - {أو يصيبهم عذاب أليم} وإبليس خالف أمر الله فصار كافرا ؛ وغيره أصابه عذاب أليم. وقد احتجت الخوارج والمعتزلة بقوله تعالى: {إنما يتقبل الله من المتقين} قالوا: فصاحب الكبيرة ليس من المتقين فلا يتقبل الله منه عملا فلا يكون له حسنة وأعظم الحسنات الإيمان فلا يكون معه إيمان فيستحق الخلود في النار وقد أجابتهم المرجئة: بأن المراد بالمتقين من يتقي الكفر فقالوا لهم: اسم المتقين في القرآن يتناول المستحقين للثواب كقوله تعالى: {إن المتقين في جنات ونهر} {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} وأيضا فابنا آدم حين قربا قربانا لم يكن المقرب المردود قربانه حينئذ كافرا وإنما كفر بعد ذلك ؛ إذ لو كان كافرا لم يتقرب وأيضا فما زال السلف يخافون من هذه الآية ولو أريد بها من يتقي الكفر لم يخافوا وأيضا فإطلاق لفظ المتقين والمراد به من ليس بكافر لا أصل له في خطاب الشارع فلا يجوز حمله عليه. و " الجواب الصحيح ": أن المراد من اتقى الله في ذلك العمل كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: {ليبلوكم أيكم أحسن عملا} قال: أخلصه وأصوبه قيل: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فمن عمل لغير الله - كأهل الرياء - لم يقبل منه ذلك. كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل: {أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري فأنا بريء منه وهو كله للذي أشركه}. وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: {لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول} وقال: {لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار} وقال في الحديث الصحيح: {من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد} أي فهو مردود غير مقبول. فمن اتقى الكفر وعمل عملا ليس عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه وإن صلى بغير وضوء لم يقبل منه لأنه ليس متقيا في ذلك العمل وإن كان متقيا للشرك. وقد قال تعالى: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} وفي حديث {عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعذب ؟ قال: لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه}. وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على وجهه المأمور: وهذا أظهر الوجوه في

استثناء من استثنى منهم في الإيمان وفي أعمال الإيمـان كقـول أحـدهم: أنا مـؤمن " إن شـاء الله " - وصـليت - إن شـاء الله - لخوف أن لا يكون آتى بـالواجب على الوجه المـأمور به لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق ؛ لا يجوز أن يراد بالآيـة: إن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الـــــذنوب كلها لأن الكـــــافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقيا فـإن كـان قبـول العمل مشروطا بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له امتنع قبـول التوبـة. بخلاف ما إذا اشترط التقوى في العمل فـإن التـائب حين يتـوب يــــأتي بالتوبة الواجبة وهو حين شـــــروعه في التوبة منتقل من الشر إلى الخـــير لم يخلص من الـــذنب بل هو متق في حـــال تخلصه منه. و " أيضا " فلو أتى الإنسـان بأعمـال الـبر وهو مصر على كبيرة ثم تاب لـوجب أن تسـقط سـيئاته بالتوبة وتقبل منه تلك الحسنات وهو حين أتى بها كان فاسـقا. و " أيضا " فالكـافر إذا أسلم وعليه للناس مظـالم من قتل وغصب وقـذف - وكـذلك الذمي إذا أسلم - قبل إسلامه مع بقاء مظالم العبـاد عليه ؛ فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصح إسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم ؛ بل يكون مع إسلامه مخلدا وقد كان الناس مسلمين على عهد رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات فيقبل إسلامهم ويتوبون إلى الله سبحانه من التبعات. كما ثبت في الصحيح {أن المغـيرة بن شعبة لما أسلم وكان قد رافق قوما في الجاهلية فغـدر بهم وأخذ أمـوالهم وجـاء فأسـلم فلما جـاء عـروة بن مسـعود عـام الحديبية والمغيرة قـائم على رأس النـبي صـلى الله عليه وسـلم بالسيف دفعه المغيرة بالسـيف فقـال: من هـذا فقـالوا: ابن أختك المغيرة فقـال يا غـدر ألست أسـعى في غـدرتك ؟ فقـال النـبي صلى الله عليه وسلم: أما الإسلام فأقبله وأما المـال فلست منه في شيء} وقد قال تعالى: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسـابهم من شـيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظـالمين} وقـالوا لنـوح: {أنـؤمن لك واتبعك الأرذلـون} {قـال وما علمي بما كـانوا يعملـــون} {إن حســـابهم إلا على ربي لو تشـــعرون}. ولا نعـــرف أحدا من المسلمين جاءه ذمي يسـلم فقـال له لا يصح إسـلامك حتى لا يكـون عليك ذنب وكـذلك سـائر أعمـال الـبر من الصـلاة والزكاة. (السبب الرابـع) الـدافع للعقـاب: دعـاء المؤمـنين للمـؤمن مثل صلاتهم على جنازته فعن عائشة وأنس بن مالك عن النـــبي صــلى الله عليه وســلم أنه قــال: {ما من ميت يصــلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون إلا شـفعوا فيـه}. وعن

ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه} رواهما مسلم. وهذا دعاء له بعد الموت. فلا يجوز أن تحمل المغفرة على المؤمن التقي الذي اجتنب الكبائر وكفرت عنه الصغائر وحده فإن ذلك مغفور له عند المتنازعين. فعلم أن هذا الدعاء من أسباب المغفرة للميت. (السبب الخامس): ما يعمل للميت من أعمال البر ؟ كالصدقة ونحوها فإن هذا ينتفع به بنصوص السنة الصحيحة الصريحة واتفاق الأئمة وكذلك العتق والحج. بل قد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: {من مات وعليه صيام صام عنه وليه} وثبت مثل ذلك في الصحيح من صوم النذر من وجوه أخرى ولا يجوز أن يعارض هذا بقوله: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} لوجهين. (أحدهما) أنه قد ثبت بالنصوص المتواترة وإجماع سلف الأمة أن المؤمن ينتفع بما ليس من سعيه كدعاء الملائكة واستغفارهم له كما في قوله تعالى: {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا} الآية. ودعاء النبيين والمؤمنين واستغفارهم كما في قوله تعالى: {وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم} وقوله سبحانه: {ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول} وقوله عز وجل: {واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} كدعاء المصلين للميت ولمن زاروا قبره - من المؤمنين -. (الثاني): أن الآية ليست في ظاهرها إلا أنه ليس له إلا سعيه وهذا حق فإنه لا يملك ولا يستحق إلا سعي نفسه وأما سعي غيره فلا يملكه ولا يستحقه ؛ لكن هذا لا يمنع أن ينفعه الله ويرحمه به ؛ كما أنه دائما يرحم عباده بأسباب خارجة عن مقدورهم. وهو سبحانه بحكمته ورحمته يرحم العباد بأسباب يفعلها العباد ليثيب أولئك على تلك الأسباب فيرحم الجميع كما في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {ما من رجل يدعو لأخيه بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل} وكما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: {من صلى على جنازة فله قيراط ؛ ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان ؛ أصغرهما مثل أحد} فهو قد يرحم المصلي على الميت بدعائه له ويرحم الميت أيضا بدعاء هذا الحي له. (السبب السادس): شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة كما قد تواترت عنه أحاديث الشفاعة مثل قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: {شفاعتي لأهل الكبائر من

أمتي}. وقوله صلى الله عليه وسلم: {خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة، وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكثر ؛ أترونها للمتقين ؟ لا. ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين}. (السبب السابع): المصائب التي يكفر الله بها الخطايا في الدنيا كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {ما يصيب المؤمن من وصب ؛ ولا نصب ؛ ولا هم ؛ ولا حزن ؛ ولا غم ؛ ولا أذى - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياه} (السبب الثامن): ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة فإن هذا مما يكفر به الخطايا. (السبب التاسع): أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها. (السبب العاشر): رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد. فإذا ثبت أن الذم والعقاب قد يدفع عن أهل الذنوب بهذه الأسباب العشرة كان دعواهم أن عقوبات أهل الكبائر لا تندفع إلا بالتوبة مخالف لذلك0

(فصل) (ص501)

" فهذان القولان ": قول الخوارج الذين يكفرون بمطلق الذنوب ويخلدون في النار ؛ وقول من يخلدهم في النار ويجزم بأن الله لا يغفر لهم إلا بالتوبة ويقول ليس معهم من الإيمان شيء لم يذهب إليهما أحد من أئمة الدين أهل الفقه والحديث بل هما من الأقوال المشهورة عن أهل البدع. وكذلك قول من وقف في أهل الكبائر من غلاة المرجئة وقال لا أعلم أن أحدا منهم يدخل النار هو أيضا من الأقوال المبتدعة ؛ بل السلف والأئمة متفقون على ما تواترت به النصوص من أنه لا بد أن يدخل النار قوم من أهل القبلة ثم يخرجون منها. وأما من جزم بأنه لا يدخل النار أحد من أهل القبلة فهذا لا نعرفه قولا لأحد. وبعده قول من يقول: ما ثم عذاب أصلا وإنما هو تخويف لا حقيقة له وهذا من أقوال الملاحدة والكفار. وربما احتج بعضهم بقوله: {ذلك يخوف الله به عباده} فيقال لهذا: التخويف إنما يكون تخويفا إذا كان هناك مخوف يمكن وقوعه بالمخوف فإن لم يكن هناك ما يمكن وقوعه امتنع التخويف لكن يكون حاصله إيهام الخائفين بما لا حقيقة له كما توهم الصبي الصغير. ومعلوم أن مثل هذا لا يحصل به تخويف للعقلاء المميزين. لأنهم إذا علموا أنه ليس هناك شيء مخوف زال الخوف وهذا شبيه بما تقول " الملاحدة " المتفلسفة والقرامطة ونحوهم: من أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: خاطبوا الناس بإظهار أمور من الوعد والوعيد لا حقيقة لها في الباطن وإنما هي أمثال مضروبة

لتفهم حـــال النفس بعد المفارقة وما أظهـــروه لهم من الوعد والوعيد وإن كـان لا حقيقة له فإنما يعلق لمصـلحتهم في الـدنيا إذ كان لا يمكن تقويمهم إلا بهذه الطريقة. و " هـذا القـول " مع أنه معلـوم الفسـاد بالضـرورة من دين الرسل ؛ فلو كـان الأمر كذلك لكان خواص الرسل الأذكياء يعلمون ذلك وإذا علموه زالت محـــافظتهم على الأمر والنهي كما يصـــيب خـــواص ملاحـــدة المتفلسفة والقرامطـة: من الإسـماعيلية والنصـيرية ونحـوهم فـإن البـارع منهم في العلم والمعرفة يـزول عنه عنـدهم الأمر والنهي وتبـاح له المحظـورات وتسـقط عنه الواجبـات فتظهر أضـغانهم وتنكشف أسـرارهم ويعـرف عمـوم النـاس حقيقة دينهم البـاطن حـتى سـموهم باطنية ؛ لإبطـانهم خلاف ما يظهـرون. فلو كـان - والعيـــاذ بالله - دين الرسل كـــذلك لكـــان خواصه قد عرفـــوه وأظهروا باطنه. وكـان عند أهل المعرفة والتحقيق من جنس دين الباطنية ومن المعلوم بالاضـطرار أن الصـحابة الـذين كـانوا أعلم الناس بباطن الرسول وظـاهره وأخـبر النـاس بمقاصـده ومراداته كـانوا أعظم الأمة لزوما لطاعة أمـره - سـرا وعلانية - ومحافظة على ذلك إلى المـــــوت وكل من كـــــان منهم إليه وبه أخص وبباطنه أعلم - كـــأبي بكر وعمر - كـــانوا أعظمهم لزوما للطاعة سرا وعلانية ومحافظة على أداء الواجب واجتنـاب المحـرم باطنا وظـاهرا وقد أشـبه هـؤلاء في بعض الأمـور ملاحـدة المتصـوفة: الذين يجعلون فعل المـأمور وتـرك المحظـور واجبا على السـالك حـــتى يصـــير عارفا محققا في زعمهم ؛ وحينئذ يســـقط عنه التكليف ويتأولون على ذلك قولـه تعالى: {واعبد ربك حـتى يأتيك اليقين} زاعمين أن اليقين هو ما يدعونه من المعرفة واليقين هنا الموت وما بعده. كما قال تعالى عن أهل النار: {وكنا نخوض مع الخائضين} {وكنا نكذب بيوم الدين} {حـتى أتانا اليقين} {فما تنفعهم شـــفاعة الشـــافعين}. قـــال الحسن البصـــري إن الله لم يجعل لعبـاده المؤمـنين أجلا دون المـوت وتلا هـذه الآيـة. ومنه {قولـه صلى الله عليه وسلم لما تـوفي عثمـان بن مظعـون: أما عثمان بن مظعون فقد أتاه اليقين من ربه} وهؤلاء قد يشـهدون القـــدر أولا وهي الحقيقة الكونية ويظنـــون أن غاية العـــارف أن يشهد القدر ويفنى عن هذا الشـهود وذلك المشـهد لا تميـيز فيه بين المـــأمور والمحظـــور ومحبوبـــات الله ومكروهاته وأوليائه وأعدائه. وقد يقول أحدهم: العارف شهد أولا الطاعة والمعصية ثم شـهد طاعة بلا معصـية - يريد بـذلك طاعة القـدر - كقـول بعض شيوخهم: أنا كافر برب يعصى وقيل له عن بعض الظـالمين: هـذا ماله حـــرام فقـــال: إن كـــان عصى الأمر فقد أطـــاع الإرادة. ثم

ينتقلون " إلى المشهد الثـالث " لا طاعة ولا معصـية وهو مشـهد أهل الوحـدة القـائلين بوحـدة الوجـود وهـذا غاية إلحـاد المبتدعة جهمية الصــــوفية كما أن القرمطة آخر إلحــــاد الشــــيعة وكلا الإلحـــادين يتقاربـــان. وفيهما من الكفر ما ليس في دين اليهـــود والنصارى ومشركي العرب والله أعلم.

(فصل) (ص504)

ثم بعد ذلك تنازع الناس في اسم المؤمن والإيمان نزاعا كثيرا منه لفظي وكثير منه معنوي فإن أئمة الفقهـاء لم ينـازعوا في شيء مما ذكرناه من الأحكام وإن كان بعضهم أعلم بالــدين وأقــوم به من بعض ولكن تنــازعوا في الأســماء كتنــازعهم في الإيمــــان هل يزيد وينقص ؟ وهل يســــتثنى فيه أم لا ؟ وهل الأعمــال من الإيمــان أم لا ؟ وهل الفاسق الملي مــؤمن كامل الإيمــان أم لا ؟ والمــأثور عن الصـحابة وأئمة التـابعين وجمهـور السلف وهو مذهب أهل الحديث وهو المنسـوب إلى أهل السـنة أن الإيمـــــان قـــــول وعمل يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصـية وأنه يجـوز الاسـتثناء فيه كما قـال عمـير بن حـبيب الخطمي وغيره من الصـحابة: الإيمـان يزيد وينقص فقيل لـه: وما زيادته ونقصـانه ؟ فقـال: إذا ذكرنا الله وحمـدناه وسـبحناه فتلك زيادتـه. وإذا غفلنا ونسـينا وضـيعنا فـذلك نقصـانه. فهـذه الألفـاظ المأثورة عن جمهورهم. وربما قال بعضـهم وكثـير من المتـأخرين: قول وعمل ونية وربما قال آخر: قول وعمل ونية واتباع السنة ؛ وربما قـال: قـول باللسـان واعتقـاد بالجنـان وعمل بالأركـان أي بـالجوارح. وروى بعضـهم هـذا مرفوعا إلى النـبي صـلى الله عليه وسلم في النسخة المنسـوبة إلى أبي الصـلت الهـروي عن علي بن أبي موسى الرضا وذلك من الموضـوعات على النـبي صـلى الله عليه وســلم باتفـــاق أهل العلم بحديثـــه. وليس بين هـــذه العبارات اختلاف معنـوي ولكن القـول المطلق والعمل المطلق ؛ في كلام الســلف يتنــاول قــول القلب واللســان وعمل القلب والجوارح فقول اللسان بـدون اعتقـاد القلب هو قـول المنـافقين وهذا لا يسمى قولا إلا بالتقييد. كقولـه تعالى: {يقولـون بألسـنتهم ما ليس في قلوبهم} وكذلك عمل الجوارح بدون أعمـال القلـوب هي من أعمال المنافقين ؛ الـتي لا يتقبلها اللـه. فقـول السـلف: يتضـمن القــول والعمل البـاطن والظـاهر ؛ لكن لما كـان بعض الناس قد لا يفهم دخول النية في ذلك ؛ قـال بعضـهم: ونيـة. ثم بين آخـرون: أن مطلق القـول والعمل والنية لا يكـون مقبـولا إلا بموافقة السـنة. وهـذا حق أيضا فـإن أولئك قـالوا: قــول وعمل

ليبينوا اشتماله على الجنس ولم يكن مقصودهم ذكر صفات الأقوال والأعمال ؛ وكذلك قول من قال: اعتقاد بالقلب ؛ وقول باللسان وعمل بالجوارح. جعل القول والعمل اسما لما يظهر ؛ فاحتاج أن يضم إلى ذلك اعتقاد القلب ولا بد أن يدخل في قوله: اعتقاد القلب أعمال القلب المقارنة لتصديقه مثل حب الله. وخشية الله ؛ والتوكل على الله ونحو ذلك. فإن دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها. وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن ولم يجدوا ذكر النقص وهذا إحدى الروايتين عن مالك والرواية الأخرى عنه ؛ وهو المشهور عند أصحابه كقول سائرهم: إنه يزيد وينقص ؛ وبعضهم عدل عن لفظ الزيادة والنقصان إلى لفظ التفاضل فقال أقول: الإيمان يتفاضل ويتفاوت ويروى هذا عن ابن المبارك وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته. وأنكر حماد بن أبي سليمان ومن اتبعه تفاضل الإيمان ودخول الأعمال فيه والاستثناء فيه ؛ وهؤلاء من مرجئة الفقهاء وأما إبراهيم النخعي - إمام أهل الكوفة شيخ حماد بن أبي سليمان - وأمثاله ؛ ومن قبله من أصحاب ابن مسعود: كعلقمة والأسود ؛ فكانوا من أشد الناس مخالفة للمرجئة وكانوا يستثنون في الإيمان ؛ لكن حماد بن أبي سليمان خالف سلفه ؛ واتبعه من اتبعه ودخل في هذا طوائف من أهل الكوفة ومن بعدهم. ثم إن " السلف والأئمة " اشتد إنكارهم على هؤلاء وتبديعهم وتغليظ القول فيهم ؛ ولم أعلم أحدا منهم نطق بتكفيرهم ؛ بل هم متفقون على أنهم لا يكفرون في ذلك ؛ وقد نص أحمد وغيره من الأئمة: على عدم تكفير هؤلاء المرجئة. ومن نقل عن أحمد أو غيره من الأئمة تكفيرا لهؤلاء ؛ أو جعل هؤلاء من أهل البدع المتنازع في تكفيرهم فقد غلط غلطا عظيما ؛ والمحفوظ عن أحمد وأمثاله من الأئمة ؛ إنما هو تكفير الجهمية المشبهة وأمثال هؤلاء ولم يكفر أحمد " الخوارج " ولا " القدرية " إذا أقروا بالعلم ؛ وأنكروا خلق الأفعال وعموم المشيئة ؛ لكن حكي عنه في تكفيرهم روايتان. وأما " المرجئة " فلا يختلف قوله في عدم تكفيرهم ؛ مع أن أحمد لم يكفر أعيان الجهمية ولا كل من قال إنه جهمي كفره ولا كل من وافق الجهمية في بعض بدعهم ؛ بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة لم يكفرهم أحمد وأمثاله ؛ بل كان يعتقد إيمانهم وإمامتهم ؛ ويدعو لهم ؛ ويرى الائتمام

بهم في الصلوات خلفهم والحج والغزو معهم والمنع من الخـروج عليهم ما يـراه لأمثـالهم من الأئمـة. وينكر ما أحـدثوا من القـول الباطل الذي هو كفر عظيم وإن لم يعلموا هم أنه كفر ؛ وكـان ينكـره ويجاهـدهم على رده بحسب الإمكـان ؛ فيجمع بين طاعة الله ورســوله في إظهــار الســنة والــدين وإنكــار بــدع الجهمية الملحدين ؛ وبين رعاية حقوق المؤمــنين من الأئمة والأمة ؛ وإن كانوا جهـالا مبتـدعين ؛ وظلمة فاسـقين. وهـؤلاء المعروفـون مثل حمــاد بن أبي ســليمان وأبي حنيفة وغيرهما من فقهــاء الكوفة كانوا يجعلون قـول اللسـان ؛ واعتقـاد القلب من الإيمـان ؛ وهو قول أبي محمد بن كلاب وأمثاله لم يختلف قولــهم في ذلك ولا نقل عنهم أنهم قــالوا الإيمــان مجــرد تصــديق القلب. لكن هــذا القول حكـوه عن " الجهم بن صـفوان " ذكـروا أنه قـال: الإيمـان مجـرد معرفة القلب وإن لم يقر بلسـانه واشـتد نكـيرهم لـذلك حــتى أطلق وكيع بن الجــراح وأحمد بن حنبل وغيرهما كفر من قال ذلك ؛ فإنه من أقوال الجهمية ؛ وقالوا: إن فرعــون وإبليس وأبا طالب واليهود وأمثالهم ؛ عرفوا بقلوبهم وجحدوا بألسـنتهم ؛ فقد كـانوا مؤمـنين. وذكـروا قـول اللـه: {وجحـدوا بها واسـتيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا}. وقولـه: {الذين آتيناهم الكتـاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} وقولـه: {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} وقالوا: إبليس لم يكذب خـبرا ولم يجحد فـإن الله أمـره بلا رسـول ولكن عصى واسـتكبر ؛ وكـان كـافرا من غـير تكذيب في الباطن وتحقيق هذا مبسـوط في غـير هـذا الموضـع. وحدث بعد هـؤلاء قـول " الكرامية " ؛ إن الإيمـان قـول اللسـان دون تصـديق القلب مع قولــهم إن مثل هـذا يعـذب في الآخـرة ويخلد في النـار. وقـال أبو عبد الله الصـالحي: إن الإيمـان مجـرد تصديق القلب ومعرفته لكن له لـوازم فـإذا ذهبت دل ذلك على عـدم تصـديق القلب وإن كل قــول أو عمل ظـاهر دل الشــرع على أنه كفر كـــان ذلك لأنه دليل على عـــدم تصـــديق القلب ومعرفته وليس الكفر إلا تلك الخصلة الواحـدة وليس الإيمـان إلا مجرد التصديق الذي في القلب والمعرفة وهذا أشـهر قـولي أبي الحسن الأشعري وعليه أصـحابه كالقاضي أبي بكر وأبي المعـالي وأمثالهما ولهــذا عــدهم أهل المقــالات من " المرجئة " والقــول الآخر عنه كقول السـلف وأهل الحـديث: إن الإيمـان قـول وعمل وهو اختيــار طائفة من أصـحابه ومع هـذا فهو وجمهـور أصـحابه على قـــول أهل الحـــديث في الاســـتثناء في الإيمـــان. والإيمـــان المطلق عنده ما يحصل به الموافـاة والاستثناء عنـده يعـود إلى ذلك ؛ لا إلى الكمال والنقصان والحال. وقد منع أن يطلق القول

بـأن الإيمـان مخلـوق أو غـير مخلـوق وصـنف في ذلك مصـنفا معروفا عند أهل السنة في " كتاب المقـالات ". وقـال إنه يقـول بقولـهم. وقد ذهب طائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة - كـأبي منصـور الماتريـدي وأمثاله - إلى نظـير هـذا القـول في الأصل وقـالوا إن الإيمـان هو ما في القلب وأن القـول الظـاهر شـرط لثبوت أحكام الدنيا ؛ لكن هؤلاء يقولون بالاستثناء ونحو ذلك كما عـرف من أصـلهم وأصل نـزاع هـذه الفـرق في الإيمـان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوا الإيمان شـيئا واحـدا إذا زال بعضه زال جميعه وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: {يخرج من النار من كـان في قلبه مثقـال حبة من الإيمان}. ثم قالت " الخـوارج والمعتزلة " الطاعـات كلها من الإيمـان فـإذا ذهب بعضـها ذهب بعض الإيمـان فـذهب سـائره فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمـان. وقـالت " المرجئة والجهمية ": ليس الإيمان إلا شـيئا واحـدا لا يتبعض أما مجـرد تصـديق القلب كقـول الجهمية أو تصـديق القلب واللسـان كقول المرجئة قالوا: لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جـزءا منه فإذا ذهبت ذهب بعضه فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان وهو قول المعتزلة والخوارج لكن قد يكون له لـوازم ودلائل فيسـتدل بعدمها على عدمه. وكان كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضـين حيث قـالوا: الإيمـان قـول وعمل وقـالوا مع ذلك لا يـزول بـزوال بعض الأعمـال حـتى إن ابن الخطيب وأمثاله جعلوا الشافعي متناقضا في ذلك فإن الشافعي كـان من أئمة السـنة وله في الـرد على المرجئة كلام مشـهور وقد ذكر في كتاب الطهارة من " الأم " إجماع الصحابة والتابعين وتـابعيهم على قول أهل السـنة فلما صـنف ابن الخطيب تصـنيفا فيه وهو يقول في الإيمان بقول جهم والصالحي استشكل قـول الشـافعي ورآه متناقضا. وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تـزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشـرة ؛ وكذلك الأجسام المركبة كالسـكنجبين إذا زال أحد جزأيه خـرج عن كونه سـكنجبينا. قـالوا فـإذا كـان الإيمـان مركبا من أقـوال وأعمـال ظـاهرة وباطنة لـزم زواله بـزوال بعضـها. وهـذا قـول الخـوارج والمعتزلة قـالوا: ولأنه يلـزم أن يكـون الرجل مؤمنا بما فيه من الإيمان كـافرا بما فيه من الكفر فيقـوم به كفر وإيمـان وادعوا أن هذا خلاف الإجماع ولهـذه الشـبهة - والله أعلم - امتنع من امتنع من أئمة الفقهاء أن يقول بنقصه ؛ كأنه ظن: إذا قـال ذلك يلزم ذهابه كله ؛ بخلاف ما إذا زاد. ثم إن " هذه الشبهة "

هي شـبهة من منع أن يكـون في الرجل الواحد طاعة ومعصـية لأن الطاعة جزء من الإيمان والمعصية جزء من الكفر فلا يجتمع فيه كفر وإيمـان وقـالوا ما ثم إلا مـؤمن محض أو كـافر محض ثم نقلـوا حكم الواحد من الأشـخاص إلى الواحد من الأعمـال فقـالوا: لا يكـون العمل الواحد محبوبا من وجه مكروها من وجه وغلا فيه أبو هاشم فنقله إلى الواحد بـالنوع فقـال: لا يجـوز أن يكون جنس السجود أو الركـوع أو غـير ذلك من الأعمـال بعض أنواعه طاعة وبعضـها معصـية ؛ لأن الحقيقة الواحـدة لا توصف بوصـفين مختلفين بل الطاعة والمعصـية تتعلق بأعمـال القلـوب وهو قصد السـاجد دون عمله الظـاهر. واشـتد نكـير النـاس عليه في هذا القول وذكروا من مخالفته للإجماع , وجحده للضـروريات شرعا وعقلا ما يتبين به فساده. وهـؤلاء منتهى نظـرهم أن يـروا حقيقة مطلقة مجـردة تقـوم في أنفسـهم فيقولـون: الإيمـان من حيث هو هو والسـجود من حيث هو هو لا يجـوز أن يتفاضل ولا يجـوز أن يختلف وأمثـال ذلك ؛ ولو اهتـدوا لعلمـوا أن الأمـور الموجودة في الخارج عن الذهن متمـيزة بخصائصـها وأن الحقيقة المجردة المطلقة لا تكون إلا في الـذهن وأن النـاس إذا تكلمـوا في التفاضل والاختلاف فإنما تكلموا في تفاضل الأمور الموجـودة واختلافها لا في تفاضل أمر مطلق مجرد في الذهن لا وجـود له في الخــارج ومعلــوم أن الســواد مختلف فبعضه أشد من بعض وكذلك البياض وغيره من الألوان. وأما إذا قـدرنا السـواد المجـرد المطلق الـذي يتصـوره الـذهن فهـذا لا يقبل الاختلاف والتفاضل لكن هـذا هو في الأذهـان لا في الأعيـان. ومثل هـذا الغلط وقع فيه كثـير من الخائضـين في أصـول الفقه حيث أنكـروا تفاضل العقل أو الإيجـاب أو التحـريم وإنكـار التفاضل في ذلك قــول القاضي أبي بكر وابن عقيل وأمثالهما لكن الجمهـور على خلاف ذلك وهو قـــول أبي الحسن التميمي وأبي محمد البربهـــاري والقاضي أبي يعلى وأبي الخطاب وغيرهم. وكذلك وقع نظير هـذا لأهل المنطق والفلسـفة ولمن تـابعهم من أهل الكلام والاتحـاد في توحيد واجب الوجـود ووحدته حـتى أخـرجهم الأمر إلى ما يسـتلزم التعطيل المحض كما بينـاه في غـير هـذا الموضـع. وأهل المنطق اليونان مضطربون في هذا المقـام يقـول أحـدهم القـول ويقول نقيضه كما هو مـذكور في موضـعه ونحن نـذكر ما يتعلق بهذا الموضع فنقـول - ولا حـول ولا قـوة إلا بالله - الكلام في " طـرفين ". (أحـدهما): أن شـعب الإيمـان هل هي متلازمة في الانتفـاء ؟ ؟ و (الثـاني): هل هي متلازمة في الثبـوت ؟ ؟ أما " الأول " فإن الحقيقة الجامعة لأمور - سواء كـانت في الأعيـان أو

الأعـراض - إذا زال بعض تلك الأمـور فقد يـزول سـائرها وقد لا يـزول ولا يلـزم من زوال بعض الأمـور المجتمعة زوال سـائرها وسـواء سـميت مركبة أو مؤلفة أو غـير ذلك لا يلـزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها. وما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطـابق لـذلك فـإن الواحد من العشـرة إذا زال لم يلـزم زوال التسعة بل قد تبقى التسعة فإذا زال أحد جزأي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر ؛ لكن أكثر ما يقولون زالت الصورة المجتمعة وزالت الهيئة الاجتماعية وزال ذلك الاسم الـذي اسـتحقته الهيئة بـذلك الاجتمـاع والـتركيب كما يـزول اسم العشـرة والسـكنجبين. فيقال: أما كون ذلك المجتمع المـركب ما بقي على تركيبه فهـذا لا ينـازع فيه عاقل ولا يـدعي عاقل أن الإيمـان أو الصـلاة أو الحج أو غـير ذلك من العبـادات المتناولة لأمـور إذا زال بعضـها بقي ذلك المجتمع المـركب كما كـان قبل زوال بعضه ولا يقـول أحـد: إن الشـجرة أو الـدار إذا زال بعضـها بقيت مجتمعة كما كانت ولا أن الإنسان أو غيره من الحيوان إذا زال بعض أعضائه بقي مجموعا. كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم: {كل مولـود يولد على الفطـرة فـأبواه يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسـانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعـاء هل تحسـون فيها من جـدعاء} فالمجتمعة الخلق بعد الجدع لا تبقى مجتمعة ولكن لا يلزم زوال بقية الأجـزاء. وأما زوال الاسم فيقـال لهم هـذا: " أولا " بحث لفظي إذا قـدر أن الإيمـان له أبعـاد وشـعب ؛ كما قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم في الحـديث المتفق عليـه: {الإيمـان بضع وسـبعون شـعبة أعلاها قـول: لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحيـاء شـعبة من الإيمـان} كما أن الصـلاة والحج له أجـزاء وشـعب ولا يلـزم من زوال شـعبة من شـعبه زوال سائر الأجزاء والشعب ؛ كما لا يلزم من زوال بعض أجزاء الحج والصـلاة زوال سـائر الأجـزاء. فـدعواهم أنه إذا زال بعض المركب زال البعض الآخر ليس بصـواب ونحن نسـلم لهم أنه ما بقي إلا بعضه لا كله وأن الهيئة الاجتماعية ما بقيت كما كـانت. يبقى الـنزاع هل يلـزم زوال الاسم بـزوال بعض الأجـزاء فيقـال لهم: المركبـات في ذلك على وجهين منهـا: ما يكـون الـتركيب شرطا في إطلاق الاسم ومنها: ما لا يكـون كـذلك فـالأول كاسم العشرة وكذلك السـكنجبين ومنها ما يبقى الاسم بعد زوال بعض الأجـزاء ؛ وجميع المركبـات المتشـابهة الأجـزاء من هـذا البـاب وكـذلك كثـير من المختلفة الأجـزاء فـإن المكيلات والموزونـات تسمى حنطة وهي بعد النقص حنطة وكذلك التراب والمـاء ونحو ذلـك. وكـذلك لفظ العبـادة والطاعة والخـير والحسـنة والإحسـان

والصــدقة والعلم ونحو ذلك مما يــدخل فيه أمــور كثــيرة يطلق الاسم عليها قليلها وكثيرها وعند زوال بعض الأجـزاء وبقـاء بعض وكذلك لفظ " القرآن " فيقال على جميعه وعلى بعضه ولو نــزل قرآن أكثر من هذا لسمي قرآنا وقد تسمى الكتب القديمة قرآنا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: {خفف على داود القـرآن} وكـذلك لفظ القـول والكلام والمنطق ونحو ذلك يقع على القليل من ذلك وعلى الكثـير. وكـذلك لفظ الـذكر والـدعاء يقـال للقليل والكثـــير وكـــذلك لفظ الجبل يقـــال على الجبل وإن ذهب منه أجـزاء كثـيرة. ولفظ البحر والنهر يقـال عليه وإن نقصت أجـزاؤه وكـذلك المدينة والـدار والقرية والمسـجد ونحو ذلك يقـال على الجملة المجتمعة ثم ينقص كثير من أجزائها والاسم بـاق وكـذلك أسماء الحيوان والنبات كلفظ الشجرة يقـال على جملتها فيـدخل فيها الأغصان وغيرها ثم يقطع منها ما يقطع والاسم باق وكـذلك لفظ الإنسان والفرس والحمار يقال على الحيوان المجتمع الخلق ثم يـذهب كثـير من أعضـائه والاسم بـاق وكـذلك أسـماء بعض الأعلام: كزيد وعمـــرو يتنـــاول الجملة المجتمعة ثم يـــزول بعض أجزائها والاسم بـاق. وإذا كـانت المركبـات على نـوعين بل غالبها من هذا النوع لم يصح قولـهم إنه إذا زال جزؤه لـزم أن يـزول الاسم إذا أمكن أن يبقى الاسم مع بقـاء الجـزء البـاقي. ومعلـوم أن اسم " الإيمان " من هذا الباب ؛ فإن النـبي صـلى الله عليه وسلم قال: {الإيمـان بضع وسـبعون شـعبة أعلاها قـول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان} ثم من المعلـــــوم أنه إذا زالت الإماطة ونحوها لم يـــــزل اسم الإيمان. وقد ثبت عنه صـلى الله عليه وسـلم في الصـحيحين أنه قال: {يخرج من النار من كان في قلبه مثقـال حبة من إيمـان} فـــأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه وأن ذاك من الإيمـــان فعلم أن بعض الإيمـان يـزول ويبقى بعضه وهـذا ينقض مآخـذهم الفاسـدة ويــبين أن اسم الإيمــان مثل اسم القــرآن والصــلاة والحج ونحو ذلك أما الحج ونحــوه ففيه أجــزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ولا يبطل كـرمي الجمـار والمـبيت بمـنى ونحو ذلك وفيه أجزاء ينقص بزوالها من كماله المسـتحب كرفع الصـوت بـالإهلال والرمل والاضـطباع في الطــواف الأول. وكـذلك " الصــلاة " فيها أجــزاء تنقص بزوالها عن كمــال الاســتحباب وفيها أجــزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمــال الــواجب مع الصـحة في مــذهب أبي حنيفة وأحمد ومالك وفيها ما له أجـــزاء إذا زالت جـــبر نقصـــها بسـجود السـهو وأمـور ليست كـذلك. فقد رأيت أجـزاء الشـيء تختلف أحكامها شرعا وطبعا فإذا قال المعترض: هذا الجزء داخل

في الحقيقة وهذا خارج من الحقيقة قيل لـه: مـاذا تريد بالحقيقة فإن قال: أريد بذلك ما إذا زال صار صاحبه كافرا قيل لــه: ليس للإيمــان حقيقة واحــدة مثل حقيقة مســمى " مســلم " في حق جميع المكلفين في جميع الأزمـــان بهـــذا الاعتبـــار مثل حقيقة الســواد والبيــاض ؛ بل الإيمــان والكفر يختلف بــاختلاف المكلف وبلوغ التكليف له وبزوال الخطـاب الـذي به التكليف ونحو ذلـك. وكــذلك الإيمــان والــواجب على غــيره مطلق ؛ لا مثل الإيمــان الواجب عليه في كل وقت فإن الله لما بعث محمدا رسولا إلى الخلق كان الواجب على الخلق تصــديقه فيما أخــبر وطاعته فيما أمر ولم يأمرهم حينئذ بالصلوات الخمس ولا صيام شهر رمضــان ولا حج الــبيت ولا حــرم عليهم الخمر والربا ونحو ذلك ولا كــان أكــثر القــرآن قد نــزل فمن صــدقه حينئذ فيما نــزل من القــرآن وأقر بما أمر به من الشــهادتين وتوابع ذلك كــان ذلك الشــخص حينئذ مؤمنا تــام الإيمــان الــذي وجب عليه وإن كــان مثل ذلك الإيمان لو أتى به بعد الهجرة لم يقبل منه ولو اقتصر عليه كان كافرا. قال الإمام أحمد: كان بدء الإيمــان ناقصا فجعل يزيد حــتى كمل ولهــذا قــال تعــالى عــام حجة الــوداع: {اليــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمــتي}. و " أيضا " فبعد نــزول القــرآن وإكمــال الــدين إذا بلغ الرجل بعض الــدين دون بعض كــان عليه أن يصــدق ما جــاء به الرســول جملة وما بلغه عنه مفصلا وأما ما لم يبلغه ولم يمكنه معرفته فذاك إنما عليه أن يعرفه مفصلا إذا بلغه و " أيضا " فالرجل إذا آمن بالرسول إيمانا جازما ومات قبل دخول وقت الصلاة أو وجوب شيء من الأعمال مـات كامل الإيمان الذي وجب عليه فإذا دخل وقت الصلاة فعليه أن يصــلي وصار يجب عليه ما لم يجب عليه قبل ذلك. وكذلك القــادر على الحج والجهــاد يجب عليه ما لم يجب على غــيره من التصــديق المفصل والعمل بذلك. فصار ما يجب من الإيمان يختلف باختلاف حال نزول الـوحي من السـماء وبحـال المكلف في البلاغ وعدمه وهذا مما يتنوع به نفس التصديق ويختلف حاله بــاختلاف القــدرة والعجز وغــير ذلك من أســباب الوجــوب وهــذه يختلف بها العمل أيضـا. ومعلـوم أن الـواجب على كل من هـؤلاء لا يماثل الـواجب على الآخــر. فــإذا كــان نفس ما وجب من الإيمــان في الشــريعة الواحدة يختلف ويتفاضل - وإن كــان بين جميع هــذه الأنــواع قــدر مشترك موجـود في الجميـع: كـالإقرار بالخـالق وإخلاص الـدين له والإقرار برسـله واليـوم الآخر على وجه الإجمـال - فمن المعلـوم أن بعض الناس إذا أتى ببعض ما يجب عليه دون بعض كـان قد تبعض ما أتى فيه من الإيمــان كتبعض ســائر الواجبـات. يبقى أن

يقال: فالبعض الآخر قد يكون شرطا في ذلك البعض وقد لا يكون شرطا فيه فالشرط فيه كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه أو آمن ببعض الرسل وكفر ببعضهم كما قال تعالى: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا} {أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا}. وقد يكون البعض المتروك ليس شرطا في وجود الآخر ولا قبوله. وحينئذ فقد يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق. وبعض شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر ؛ كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر} وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة نفاق} وقد ثبت في الصحيح {عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي ذر: إنك امرؤ فيك جاهلية} وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال: {أربع في أمتي من أمر الجاهلية لن يدعوهن: الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم}. وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {سباب المسلم فسوق وقتاله كفر} وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {: اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت} وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم} وهذا من القرآن الذي نسخت تلاوته: لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم. وفي الصحيحين عن أبي ذر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه - وهو يعلمه - إلا كفر ومن ادعى ما ليس له فليس منا وليتبوأ مقعده من النار ومن رمى رجلا بالكفر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا رجع عليه}. وفي لفظ البخاري {ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر بالله ومن ادعى قوما ليس منهم فليتبوأ مقعده من النار} وفي الصحيحين من حديث جرير وابن عمر {عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض} ورواه البخاري من حديث ابن عباس: وفي البخاري عن أبي هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {إذا قال

الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما}. وفي الصحيحين {عن زيد بن خالد قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب}. وفي صحيح مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ألم تروا إلى ما قال ربكم قال: ما أنعمت على عبادي من نعمة ؛ إلا أصبح فريق منهم بها كافرين يقولون: بالكوكب وبالكواكب} ونظائر هذا موجودة في الأحاديث. وقال ابن عباس وغير واحد من السلف في قوله تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} {فأولئك هم الفاسقون} و {الظالمون} كفر دون كفر ؛ وفسق دون فسق وظلم دون ظلم. وقد ذكر ذلك أحمد والبخاري وغيرهما. (الأصل الثاني) أن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة ولا تتلازم عند الضعف فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله. كما قال تعالى: {ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء} وقال: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه}. وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبا ينقص به إيمانه ولا يكون به كافرا كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل الله فيه {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة}. وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك. فقال: لسعد بن معاذ: كذبت والله ؛ لا تقتله ولا تقدر على قتله ؛ قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية. ولهذه الشبهة {سمى عمر حاطبا منافقا فقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه شهد بدرا} فكان عمر متأولا في تسميته منافقا للشبهة التي فعلها. وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة ؛ كذبت لعمر الله لنقتلنه ؛ إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين ؛ هو من هذا الباب. وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين. ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعا واحدا بل فيهم

المنـــافق المحض ؛ وفيهم من فيه إيمـــان ونفـــاق ؛ وفيهم من إيمانه غالب وفيه شـعبة من النفـاق. وكـان كثـير ذنـوبهم بحسب ظهور الإيمان ؛ ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك ؛ صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك ؛ ومن هذا الباب ما يروى عن الحسن البصري ونحـوه من السـلف ؛ أنهم سـموا الفسـاق منـافقين ؛ فجعل أهل المقـالات هذا قـولا مخالفا للجمهـور ؛ إذا حكـوا تنـازع النـاس في الفاسق الملي هل هو كـافر ؟ أو فاسق ليس معه إيمــان ؟ أو مــؤمن كامل الإيمــان ؟ أو مـؤمن بما معه من الإيمـان فاسق بما معه من الفسق ؟ أو منــافق والحسن - رحمه الله تعــالى - لم يقل ما خـــرج به عن الجماعة لكن ســماه منافقا على الوجه الـــذي ذكرناه. والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق ولهذا كثيرا ما يقـال: كفر ينقل عن الملة وكفر لا ينقل ونفاق أكبر ونفاق أصغر كما يقال: الشرك شركان أصغر وأكبر ؛ وفي صحيح أبي حـاتم وغـيره عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {الشـرك في هـذه الأمة أخفى من دبيب النمل فقـال أبو بكـر: يا رسـول الله كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل ؟ فقــــــال: ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله ؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشـرك بك وأنا أعلم وأسـتغفرك لما لا أعلم}. وفي الترمـذي عن النـبي صـــلى الله عليه وســـلم أنه قـــال: {من حلف بغـــير الله فقد أشرك} قال الترمذي حديث حسن. وبهـذا تـبين أن الشـارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص ؛ لانتفاء كماله الـواجب وإن كـان معه بعض أجزائه كما قال: {لا يزني الزاني حين يـزني وهو مـؤمن ؛ ولا يسرق السـارق حين يسـرق وهو مـؤمن ؛ ولا يشـرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن} ومنه قولـه: {من غشـنا فليس منا ومن حمل علينا السـلاح فليس منـا}. فـإن صـيغة " أنا " و " نحن " ونحو ذلك من ضـمير المتكلم في مثل ذلك يتنـاول النـبي صـلى الله عليه وســلم والمؤمــنين معه - الإيمـــان المطلق - الـــذي يسـتحقون به الثـواب. بلا عقـاب ومن هنا قيل إن الفاسق الملي يجـوز أن يقـال: هو مـؤمن باعتبـار ويجـوز أن يقـال: ليس مؤمنا باعتبــار. وبهــذا تــبين أن الرجل قد يكــون مســلما لا مؤمنا ولا منافقا مطلقا بل يكـون معه أصل الإيمـان دون حقيقته الواجبـة. ولهــذا أنكر أحمد وغــيره من الأئمة على من فسر قولـه صــلى الله عليه وســــــلم: " ليس منا " ليس مثلنا أو ليس من خيارنا وقال هـذا تفسـير " المرجئة " وقـالوا: لو لم يفعل هـذه الكبـيرة كـان يكـون مثل النـبي صـلى الله عليه وسـلم. وكـذلك تفسـير الخوارج والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكلية ويستحق الخلـود

في النـار ؛ تأويل منكر كما تقـدم فلا هـذا ولا هـذا. ومما يـبين ذلك أنه من المعلـوم أن معرفة الشـيء المحبـوب تقتضي حبه ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه ومعرفة المخـوف تقتضي خوفه , فنفس العلم والتصـديق بالله وما له من الأسـماء الحسـنى والصفات العلى يوجب محبة القلب له وتعظيمه وخشـيته ؛ وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته. والإرادة الجازمة مع القـدرة تستلزم وجود المراد ووجود المقـدور عليه منه ؛ فالعبد إذا كـان مريدا للصلاة إرادة جازمة مع قدرته عليها ؛ صلى فـإذا لم يصل مع القدرة دل ذلك على ضعف الإرادة. وبهذا يـزول الاشـتباه في " هـذا المقـام ". فـإن النـاس تنـازعوا في الإرادة بلا عمل ؛ هل يحصل بها عقاب ؟. وكـثر الـنزاع في ذلـك. فمن قـال: لا يعـاقب احتج بقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم الـذي في الصـحيحين {إن الله تجاوز لأمتي عما حـدثت به أنفسـها ما لم تتكلم به أو تعمل به} وبما في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قـال {: إذا هم العبد بسـيئة لم تكتب عليه فـإن عملها كتبت عليه سـيئة واحـدة وإذا هم بحسـنة كتبت له حسـنة كاملة ؛ فـإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وفي رواية فإن تركها فاكتبوها له حسنة ؛ فإنما تركها من جرائي}. ومن قـال: يعـاقب احتج بما في الصـحيح " عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {إذا التقى المسلمان بسيفيهما. فالقاتل والمقتـول في النـار ؛ قيـل: يا رسـول الله هـذا القاتل فما بـال المقتـول ؛ قـال: إنه أراد قتل صاحبه} ؛ وبالحديث الذي رواه الترمـذي وصـححه عن أبي كبشة الأنماري {عن النبي صلى الله عليه وسـلم: في الـرجلين اللـذين أوتي أحدهما علما ومالا فهو ينفقه في طاعة الله ؛ ورجل أوتي علما ولم يؤت مالا ؛ فقال: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان قال: فهما في الأجر سواء ؛ ورجل آتـاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه في معصـية الله ؛ ورجل لم يؤته الله علما ولا مـالا فقـال: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان ؛ قـال فهما في الـوزر سـواء}. و " الفصل في ذلك " أن يقـال: فـرق بين الهم والإرادة " فـالهم " قد لا يقترن به شيء من الأعمـال الظـاهرة فهـذا لا عقوبة فيه بحـال بل إن تركه لله كما تـرك يوسف همه أثيب على ذلك كما أثيب يوسف ولهذا قـال أحمـد: الهم همـان: هم خطـرات , وهم إصـرار ولهذا كان الذي دل عليه القرآن أن يوسف لم يكن له في هذه القضية ذنب أصلا بل صـرف الله عنه السـوء والفحشـاء إنه من عباده المخلصين ؛ مع ما حصل من المراودة والكذب والاسـتعانة

عليه بالنسوة وحبسه وغير ذلك من الأسباب التي لا يكاد بشر يصبر معها عن الفاحشة ولكن يوسف اتقى الله وصبر فأثابه الله برحمته في الدنيا. {ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون}. وأما " الإرادة الجازمة " فلا بد أن يقترن بها مع القدرة فعل المقدور ولو بنظرة أو حركة رأس أو لفظة أو خطوة أو تحريك بدن ؛ وبهذا يظهر معنى قوله صلى الله عليه وسلم: {إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار}. فإن المقتول أراد قتل صاحبه فعمل ما يقدر عليه من القتال وعجز عن حصول المراد وكذلك الذي قال: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان فإنه أراد فعل ما يقدر عليه وهو الكلام ولم يقدر على ذلك ولهذا كان من دعا إلى ضلالة كان عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء لأنه أراد ضلالهم ففعل ما يقدر عليه من دعائهم إذ لا يقدر إلا على ذلك. وإذا تبين هذا في " الإرادة والعمل ": فالتصديق الذي في القلب وعلمه يقتضي عمل القلب كما يقتضي الحس الحركة الإرادية لأن النفس فيها قوتان: قوة الشعور بالملائم والمنافي والإحساس بذلك والعمل والتصديق به , وقوة الحب للملائم والبغض للمنافي والحركة عن الحس بالخوف والرجاء والموالاة والمعاداة. وإدراك الملائم يوجب اللذة والفرح والسرور وإدراك المنافي يوجب الألم والغم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم {كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء}. فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقا به ودينا له لكن يعرض لها ما يفسدها ومعرفة الحق تقتضي محبته , ومعرفة الباطل تقتضي بغضه ؛ لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل لكن قد يعرض لها ما يفسدها إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه ولهذا أمرنا الله أن نقول في الصلاة: {اهدنا الصراط المستقيم} {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون} ؛ لأن اليهود يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته. والنصارى لهم عبادة وفي قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها لكن بلا علم فهم ضلال. هؤلاء لهم معرفة بلا قصد صحيح وهؤلاء لهم قصد في الخير بلا معرفة له وينضم إلى ذلك الظن واتباع الهوى ؛ فلا يبقى في الحقيقة معرفة نافعة ؛ ولا قصد نافع بل يكون كما قال تعالى عن

مشركي أهل الكتاب: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} وقال تعالى: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون}. فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك ؛ كما أنه لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى ؛ بل لا بد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب , وليس لفظ الإيمان مرادفا للفظ التصديق كما يظنه طائفة من الناس ؛ فإن التصديق يستعمل في كل خبر فيقال لمن أخبر بالأمور المشهورة مثل: الواحد نصف الاثنين , والسماء فوق الأرض مجيبا: صدقت وصدقنا بذلك ؛ ولا يقال: آمنا لك ولا آمنا بهذا حتى يكون المخبر به من الأمور الغائبة فيقال للمخبر آمنا له وللمخبر به آمنا به كما قال إخوة يوسف: {وما أنت بمؤمن لنا} أي بمقر لنا ومصدق لنا لأنهم أخبروه عن غائب ومنه قوله تعالى: {أنؤمن لك واتبعك الأرذلون} وقوله تعالى {يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين} وقوله تعالى: {أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} وقوله تعالى: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون} {فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه} أي: أقر له. وذلك أن الإيمان يفارق التصديق أي: لفظا ومعنى ؛ فإنه أيضا يقال: صدقته فيتعدى بنفسه إلى المصدق ولا يقال أمنته إلا من الأمان الذي هو ضد الإخافة بل آمنت له وإذا ساغ أن يقال: ما أنت بمصدق لفلان كما يقال: هل أنت مصدق له. لأن الفعل المتعدي بنفسه إذا قدم مفعوله عليه أو كان العامل اسم فاعل ونحوه مما يضعف عن الفعل فقد يعدونه باللام تقوية له كما يقال: عرفت هذا وأنا به عارف وضربت هذا وأنا له ضارب وسمعت هذا ورأيته وأنا له سامع وراء كذلك يقال صدقته وأنا له مصدق ولا يقال صدقت له به وهذا خلاف آمن فإنه لا يقال إذا أردت التصديق آمنته كما يقال أقررت له ومنه قوله آمنت له كما يقال أقررت له فهذا فرق في اللفظ. و " الفرق الثاني ": ما تقدم من أن الإيمان لا يستعمل في جميع الأخبار بل في الإخبار عن الأمور الغائبة ونحوها مما يدخلها الريب. فإذا أقر بها المستمع قيل آمن بخلاف لفظ التصديق فإنه عام متناول لجميع الأخبار. وأما " المعنى ": فإن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة ؛ كما أن لفظ الإقرار: مأخوذ من قريقر وهو قريب من آمن يأمن ؛ لكن الصادق يطمأن إلى خبره ؛ والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة ؛ فالمؤمن

دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقـــرار ولفظ الإقـــرار يتضمن الالتزام ثم إنه يكـون على وجهين: (أحـدهما): الإخبـار وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق ؛ والشهادة ونحوهمـا. وهـذا معـنى الإقرار الذي يذكره الفقهـاء في كتـاب الإقـرار. و (الثـاني) إنشـاء الالتزام كما في قولـه تعالى: {أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قـال فاشـهدوا وأنا معكم من الشـاهدين}. وليس هو هنا بمعنى الخبر المجرد فإنه سبحانه قـال: {وإذ أخذ الله ميثـاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتـؤمنن به ولتنصـرنه قـال أأقـررتم وأخـذتم على ذلكم إصـري}. فهـذا الالـتزام للإيمـان والنصر للرسـول وكـذلك " لفظ الإيمــان " فيه إخبــار وإنشــاء والــتزام ؛ بخلاف لفظ التصــديق المجرد فمن أخبر الرجل بخبر لا يتضـمن طمأنينة إلى المخـبر ؛ لا يقــال فيه آمن له بخلاف الخـبر الـذي يتضـمن طمأنينة إلى المخـبر والمخـبر قد يتضـمن خـبره طاعة المسـتمع له وقد لا يتضــمن إلا مجــرد الطمأنينة إلى صــدقه فــإذا تضــمن طاعة المستمع لم يكن مؤمنا للمخبر ؛ إلا بالتزام طاعته مع تصديقه ؛ بل قد استعمل لفظ الكفر - المقابل للإيمان - في نفس الامتناع عن الطاعة والانقياد ؛ فقياس ذلك أن يستعمل لفظ الإيمان كما اسـتعمل لفظ الإقـرار في نفس الـتزام الطاعة والانقيـاد ؛ فـإن الله أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكـافرين. و " أيضا " فلفظ التصـديق إنما يسـتعمل في جنس الإخبـار فـإن التصديق إخبار بصدق المخبر ؛ والتكذيب إخبـار بكـذب المخـبر ؛ فقد يصـدق الرجل الكـاذب تـارة [وقد يكـذب الرجل] الصـادق أخـرى فالتصـديق والتكـذيب نوعـان من الخـبر , وهما خـبر عن الخـبر فالحقـائق الثابتة في نفسـها الـتي قد تعلم بـدون خـبر لا يكـاد يسـتعمل فيها لفظ التصـديق والتكـذيب إن لم يقـدر مخـبر عنها بخلاف الإيمــان والإقــرار والإنكـار والجحــود ونحو ذلك فإنه يتناول الحقائق والإخبار عن الحقـائق أيضـا. وأيضا فالـذوات الـتي تحب تارة وتبغض أخرى وتوالى تارة وتعادى أخرى وتطـاوع تـارة وتعصى أخـرى ويـذل لها تـارة ويسـتكبر عنها أخـرى تختص هـذه المعــــاني فيها بلفظ الإيمــــان والكفر ونحو ذلك ؛ وأما لفظ التصــديق والصــدق ونحو ذلك فيتعلق بمتعلقها كــالحب والبغض فيقـال: حب صـادق. وبغض صـادق فكما أن الصـدق والكـذب في إثبات الحقائق ونفيها متعلق بـالخبر النـافي والمثبت دون الحقيقة ابتــــداء. فكــــذلك في الحب والبغض ونحو ذلك يتعلق بــــالحب والبغض. دون الحقيقة ابتــــداء بخلاف لفظ الإيمــــان والكفر فإنه يتنـاول الـذوات بلا واسـطة إقـرار أو إنكـار أو حب أو بغض أو

طمأنينة أو نفور. ويشهد لهذا الدعاء المأثور المشهور عند استلام الحجر {اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم} فقال إيمانا بك ولم يقل تصديقا بك كما قال تصديقا بكتابك وقال تعالى عن مريم: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه} فجعل التصديق بالكلمات والكتب ومنه الحديث الذي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم {تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق بكلماتي ويروى إيمان بي وتصديق برسلي ويروى لا يخرجه إلا جهاد في سبيل الله وتصديق كلماته} ففي جميع الألفاظ جعل لفظ التصديق بالكلمات والرسل. وكذلك قوله في الحديث الذي في الصحيح {ذكر النبي صلى الله عليه وسلم منازل عالية في الجنة فقيل له: يا رسول الله: تلك منازل لا يبلغها إلا الأنبياء فقال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين}. وما يحصى الآن الاستعمال المعروف في كلام السلف صدقت بالله , أو فلان يصدق بالله أو صدق بالله ونحو ذلك كما جاء فلان يؤمن وآمن بالله وإيمانا بالله ونؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ونؤمن بالله وحده ونحو ذلك. فإن القرآن والحديث وكلام الخاصة والعامة مملوء من لفظ الإيمان بالله وآمن بالله ونؤمن بالله ويا أيها الذين آمنوا وما أعلم قيل التصديق بالله أو صدقوا بالله أو يا أيها الذي صدق الله ونحو ذلك اللهم إلا أن يكون في ذلك شيء لا يحضرني الساعة وما أظنه. ولفظ " الإيمان " يستعمل في الخبر أيضا كما يقال: {كل آمن بالله}: أي أقر له والرسول يؤمن له من جهة أنه مخبر ويؤمن به من جهة أن رسالته مما أخبر بها كما يؤمن بالله وملائكته وكتبه. " فالإيمان " متضمن للإقرار بما أخبر به والكفر " تارة " يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما أخبر به. و " تارة " بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به والأصل في ذلك هو الإخبار بالله وبأسمائه ولهذا كان جحد ما يتعلق بهذا الباب أعظم من جحد غيره. وإن كان الرسول أخبر بكليهما ثم مجرد تصديقه في الخبر والعلم بثبوت ما أخبر به إذا لم يكن معه طاعة لأمره لا باطنا ولا ظاهرا ولا محبة لله ولا تعظيم له لم يكن ذلك إيمانا. وكفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله من جهة عدم التصديق والعلم ؛ فإن إبليس لم يخبره أحد بخبر بل أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين فكفره بالإباء والاستكبار وما يتبع ذلك ؛ لا لأجل تكذيب. وكذلك فرعون وقومه جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وقال له موسى: {لقد

علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض} فالذي يقال هنا أحد أمرين: إما أن يقال الاستكبار والإبـاء والحسد ونحو ذلك مما الكفر به مستلزم لعـدم العلم والتصـديق الـذي هو الإيمـان وإلا فمن كـــان علمه وتصـــديقه تاما أوجب استســـلامه وطاعته مع القدوة كما أن الإرادة الجازمة تستلزم وجـود المـراد مع القـدرة فعلم أن المـــراد إذا لم يوجد مع القـــدرة دل على أنه ما في القلب همة ولا إرادة ؛ فكـــذلك إذا لم يوجد مـــوجب التصـــديق والعلم من حب القلب وانقيـاده دل على أن الحاصل في القلب ليس بتصـــديق ولا علم بل هنا شـــبهة وريب كما يقـــول ذلك طوائف من الناس وهو أصل قول جهم والصالحي والأشعري في المشـهور عنه وأكـثر أصـحابه كالقاضي أبي بكر ومن اتبعه ممن يجعل الأعمـــال الباطنة والظـــاهرة من موجبـــات الإيمـــان لا من نفسه ويجعل ما ينتفي الإيمـــان بانتفائه من لـــوازم التصـــديق لا يتصور عنده تصـديق بـاطن مع كفر قـط. أو أن يقـال: قد يحمل في القلب علم بـــالحق وتصـــديق به ولكن ما في القلب من الحسد والكـــبر ونحو ذلك مـــانع من استســـلام القلب وانقيـــاده ومحبته ؛ وليس هذا كالإرادة مع العمل ؛ لأن الإرادة مع القـدرة مسـتلزمة للمـراد وليس العلم بـالحق والتصـديق به مع القـدرة على العمل بمـــــوجب ذلك العمل بل لا بد مع ذلك من إرادة الحق والحب لـه. فـإذا قـال القائـل: القـدرة التامة بـدون الإرادة الجازمة مستلزمة لوجود المراد المقدور موجبة لحصـول المقـدور لم يكن مصيبا ؛ بل لا بد من الإرادة. وبهذا يتبين خطأ من قال: إن مجرد علم الله بالمخلوقـات مـوجب لوجودها كما يقـول ذلك من يقولـه من أهل الفلسـفة ؛ كما يغلط النـاس من يقـول إن مجرد إرادة الممكنات بدون القدرة موجب وجودها , وكما خطـأوا من قـال: إن مجـرد القـدرة كافية بل لا بد من العلم والقـدرة والإرادة في وجـود المقـدور والمـراد ؛ والإرادة مسـتلزمة لتصـور المراد والعلم به ؛ والعلم والإرادة والقدرة ونحو ذلك ؛ وإن كان قد يقـال: إنها متلازمة في الحي أو أن الحيـاة مسـتلزمة لهـذه الصفات أو أن بعض الصفات مشروط بالبعض فلا ريب أنه ليس كل معلوم مرادا محبوبا ولا مقدورا ولا كل مقدور مـرادا محبوبا وإذا كان كذلك لم يلزم من كون الشـيء معلوما مصـدقا به أن يكـون محبوبا معبـودا بل لا بد من العلم ؛ وأمر آخر به يكـون هـذا محبا وهـذا محبوبـا. فقـول من جعل مجـرد العلم والتصـديق في العبد هو الإيمان وأنه مـوجب لأعمـال القلب فـإذا انتفت دل على انتفـاء العلم ؛ بمنزلة من يقـول: مجـرد علم الله بنظـام العالم موجب لوجوده ؛ بدون وجـود إرادة منه وهو شـبيه بقـول

المتفلسـفة: إن سـعادة النفس في مجـرد أن تعلم الحقـائق ولم يقرنوا ذلك بحب الله تعالى وعبادته التي لا تتم السـعادة إلا بها ؛ وهو نظـير من يقـول: كمـال الجسم أو النفس في الحب من غـير اقـتران الحركة الإرادية به , ومن يقـول: اللـذة في مجـرد الإدراك والشـعور. وهـذا غلط باتفـاق العقلاء بل لا بد من إدراك الملائم ؛ والملائمة لا تكون إلا بمحبة بين المدرك والمدرك وتلك المحبة والموافقة والملائمة ليست نفس إدراكه والشعور بـه. وقد قـال كثـير من النـاس من الفلاسـفة والأطبـاء ومن اتبعهم إن " اللـذة " إدراك الملائم وهـذا تقصـير منهم بل اللـذة حـال يعقب إدراك الملائم ؛ كالإنسـان الـذي يحب الحلو ويشـتهيه فيدركه بالـذوق والأكل ؛ فليست اللـذة مجـرد ذوقه بل أمر يجـده من نفسه يحصل مع الذوق فلا بد " أولا " من أمـرين ؛ و " آخـرا " من أمـرين: لا بد " أولا ": من شـعور بـالمحبوب ؛ ومحبة له ؛ فما لا شـعور به لا يتصـور أن يشـتهى وما يشـعر به وليس في النفس محبة له لا يشـتهى ثم إذا حصل إدراكه بـالمحبوب نفسه حصل عقيب ذلك اللذة والفرح مع ذلك. ولهذا قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم في الـدعاء المـأثور: {اللهم إني أسـألك لـذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ؛ من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضـلة} وفي الحـديث الصـحيح {إذا دخل أهل الجنة الجنـة: نـادى منـاد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعـدا يريد أن ينجزكمـوه فيقولـون: ما هو ؟ ألم يـبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويـدخلنا الجنة ويجرنا من النـار قـال: فيكشف الحجـاب فينظـرون إليه ؛ فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه} رواه مسلم وغـيره. فاللـذة مقرونة بـالنظر إليه ؛ ولا أحب إليهم من النظر إليه لما يقـترن بـذلك من اللـذة ؛ لا أن نفس النظر هو اللـذة. وفي " الجملة " فلا بد في الإيمان الـذي في القلب من تصـديق بالله ورسوله وحب الله ورسوله وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسـوله ؛ ومعـاداة الله ورسـوله ليس إيمانا باتفـاق المسلمين ؛ وليس مجـرد التصـديق والعلم يسـتلزم الحب إلا إذا كـان القلب سـليما من المعـارض كالحسد والكـبر لأن النفس مفطورة على حب الحق وهو الـذي يلائمهـا. ولا شـيء أحب إلى القلـوب السـليمة من الله وهـذا هو الحنيفية ملة إبـراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله خليلا. وقد قال تعالى: {يوم لا ينفع مـال ولا بنـون} {إلا من أتى الله بقلب سـليم} فليس مجـرد العلم موجبا لحب المعلـوم ؛ إن لم يكن في النفس قـوة أخـرى تلائم المعلوم وهذه القوة موجودة في النفس. وكل من القوتين تقـوى بالأخرى فالعلم يقوي العمل والعمل يقوي العلم فمن عـرف الله

وقلبه سـليم أحبه ؛ وكلما ازداد له معرفة ازداد حبه له ؛ وكلما ازداد حبه له ازداد ذكـره له ومعرفته بأسـمائه وصـفاته ؛ فـإن قـوة الحب تـوجب كـثرة ذكر المحبـوب ؛ كما أن البغض يـوجب الإعـراض عن ذكر المبغض فمن عـادى الله ورسـوله وحـاد الله ورسوله كان ذلك مقتضيا لإعراضه عن ذكر الله ورسـوله بـالخير ؛ وعن ذكر ما يوجب المحبة فيضعف علمه به حـتى قد ينسـاه. كما قال تعالى: {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسـهم} وقـال تعـالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هـواه وكـان أمـره فرطـا} وقد يحصل مع ذلك تصـديق وعلم مع بغض ومعـاداة لكن تصـديق ضـعيف وعلم ضـعيف ؛ ولكن لـولا البغض والمعاداة لأوجب ذلك من محبة الله ورسوله ما يصير به مؤمنـا. فمن شـرط الإيمـان وجـود العلم التـام ولهـذا كـان الصـواب أن الجهل ببعض أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كـافرا إذا كـان مقـرا بما جـاء به الرسـول صـلى الله عليه وسـلم ولم يبلغه ما يـوجب العلم بما جهله على وجه يقتضي كفـره إذا لم يعلمه كحـديث الـذي أمر أهله بتحريقه ثم تذريته ؛ بل العلمـاء بالله يتفاضلون في العلم به. ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه بالجهل وعـدم العلم. قـال تعـالى: {إنما التوبة على الله للـذين يعملـون السـوء بجهالة ثم يتوبـون من قـريب} قـال أبو العاليـة: سـألت أصـحاب محمد عن هـذه الآية ؛ فقـالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل ؛ وكل من تـاب قبل المـوت فقد تـاب من قـريب. ومنه قـول ابن مسـعود كفى بخشـية الله علمـا. وكفى بـالاغترار بالله جهلا. وقيل للشعبي: أيها العالم فقال: العالم من يخشى الله وقد قال تعالى: {إنما يخشى الله من عبـاده العلمـاء}. وقـال أبو حيان التيمي: " العلماء ثلاثة ": عـالم بالله ؛ وبـأمر الله ؛ وعـالم بالله ليس عالما بـأمر الله وعـالم بـأمر الله ليس عالما باللـه. فالعالم بالله الذي يخشـاه. والعـالم بـأمر الله الـذي يعلم حـدوده وفرائضه. وقد قال تعالى: {إنما يخشى الله من عبـاده العلمـاء}. وهـذا يـدل على أن كل من خشي الله فهو عـالم. وهو حق ولا يـدل على أن كل عـالم يخشـاه ؛ لكن لما كـان العلم به موجبا للخشية عند عـدم المعـارض كـان عدمه دليلا على ضـعف الأصل إذ لو قوي لدفع المعارض. وهكذا لفظ " العقل " يراد به الغريزة التي بها يعلم ويراد بها أنواع من العلم. ويراد به العمل بمـوجب ذلك العلم وكذلك لفظ " الجهل " يعبر به عن عـدم العلم ويعـبر به عن عدم العمل بموجب العلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: {إذا كـان أحـدكم صـائما فلا يـرفث ولا يجهل فـإن امـرؤ شـاتمه أو قاتله فليقل إني امـرؤ صـائم} والجهل هنا هو الكلام

الباطل بمنزلة الجهل المـركب. ومنه قـول الشـاعر: ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا ومن هذا سـميت " الجاهلية " جاهلية وهي متضـمنة لعـدم العلم أو لعـدم العمل به ومنه {قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم لأبي ذر: إنك امـرؤ فيك جاهلية لما سـاب رجلا وعـيره بأمـه} وقد قـال تعـالى: {إذ جعل الـذين كفـروا في قلـوبهم الحمية حمية الجاهليـة}. فـإن الغضب والحمية تحمل المـرء على فعل ما يضـره وتـرك ما ينفعه وهـذا من الجهل الـذي هو عمل بخلاف العلم حـتى يقـدم المـرء على فعل ما يعلم أنه يضـره , وتـرك ما يعلم أنه ينفعه ؛ لما في نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال وهو في هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكلية لكنه لما في نفسه من بغض وحسد غلب مـوجب ذلك لمـوجب العلم فـدل على ضـعف العلم لعـدم موجبه ومقتضـاه ولكن ذلك المـوجب والنتيجة لا توجد عنه وحـده بل عنه وعما في النفس من حب ما ينفعها وبغض ما يضـرها فـإذا حصل لها مـرض ففسـدت به أحبت ما يضـرها وأبغضت ما ينفعها فتصير النفس كالمريض الذي يتناول ما يضره لشـهوة نفسه له مع علمه أنه يضـره. " قلت ": هـذا معـنى ما روي عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم {: أن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشـبهات ويحب العقل الكامل عند حلـول الشـهوات} رواه الـبيهقي مرسـلا. وقد قـال تعـالى {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار} فوصـفهم بـالقوة في العمل والبصيرة في العلم وأصل القـوة قـوة القلب الموجبة لمحبة الخـير وبغض الشر فـإن المـؤمن قوته في قلبه وضـعفه في جسمه والمنافق قوته في جسمه وضـعفه في قلبه فالإيمـان لا بد فيه من هـذين الأصـلين: التصـديق بـالحق والمحبة له فهـذا أصل القول وهذا أصل العمل. ثم الحب التام مع القدرة يسـتلزم حركة البدن بالقول الظـاهر , والعمل الظـاهر ضـرورة كما تقـدم فمن جعل مجـرد العلم والتصـديق موجبا لجميع ما يـدخل في مسـمى الإيمـان وكل ما سـمي إيمانا فقد غلط بل لا بد من العلم والحب والعلم شـرط في محبة المحبـوب كما أن الحيـاة شـرط في العلم ؛ لكن لا يلـزم من العلم بالشـيء والتصـديق بثبوته محبته إن لم يكن بين العالم والمعلـوم معـنى في المحب أحب لأجله ولهذا كان الإنسان يصدق بثبوت أشياء كثـيرة ويعلمها وهو يبغضها كما يصدق بوجود الشياطين والكفار ويبغضهم ونفس التصـديق بوجـود الشـيء لا يقتضي محبته ؛ لكن الله سـبحانه يسـتحق لذاته أن يحب ويعبد وأن يحب لأجله رسـوله , والقلـوب فيها معـنى يقتضي حبه وطاعته كما فيها معـنى يقتضي العلم

والتصـــديق به ؛ فمن صـــدق به وبرســـوله ولم يكن محبا له ولرســـوله لم يكن مؤمنا حـــتى يكـــون فيه مع ذلك الحب له ولرسوله. وإذا قام بـالقلب التصـديق به والمحبة له لـزم ضـرورة أن يتحرك البدن بمـوجب ذلك من الأقـوال الظـاهرة ؛ والأعمـال الظاهرة فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمـال هو مـوجب ما في القلب ولازمه ؛ ودليله ومعلوله كما أن ما يقــوم بالبــدن من الأقـوال والأعمـال له أيضا تـأثير فيما في القلب. فكل منهما يـؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل , والبـدن فـرع له والفـرع يستمد من أصله , والأصل يثبت ويقوى بفرعـه. كما في الشـجرة الـتي يضـرب بها المثل لكلمة الإيمـان. قـال تعـالى: {ضـرب الله مثلا كلمة طيبة كشـجرة طيبة أصـلها ثـابت وفرعها في السـماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها} وهي كلمة التوحيد والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي قـويت فرعهـا. وفروعها أيضا إذا اغتـذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها. وكـذلك " الإيمـان " في القلب و " الإسلام " علانية ولما كانت الأقوال والأعمـال الظـاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمـال الباطنة كـان يسـتدل بها عليهـا: كما في قولـه تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخــوانهم أو عشـيرتهم أولئك كتب في قلـوبهم الإيمـان وأيـدهم بـروح منـه} فأخبر أن من كـان مؤمنا بالله واليـوم الآخر لا يوجـدون مـوادين لأعداء الله ورسوله. بل نفس الإيمان ينافي مودتهم. فإذا حصــلت المـوادة دل ذلك على خلل الإيمـان وكـذلك قولــه: {تـرى كثـيرا منهم يتولـون الـذين كفـروا لـبئس ما قـدمت لهم أنفسـهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالـدون} {ولو كـانوا يؤمنـون بالله والنـبي وما أنـزل إليه ما اتخـذوهم أوليـاء}. وكـذلك قولــه: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهــدوا بـأموالهم وأنفسـهم في سـبيل الله أولئك هم الصـادقون} فـأخبر تعـالى أن هـؤلاء هم الصـادقون في قولــهم: آمنا ودل ذلك على أن النـاس في قولــهم: آمنا صـادق وكـاذب والكـاذب فيه نفـاق بحسب كذبه. قال تعـالى في المنـافقين: {ومن النـاس من يقـول آمنا بالله وبــاليوم الآخر وما هم بمؤمــنين} - إلى قولـه - {ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون} وفي يكـذبون قراءتـان مشـهورتان. وفي الحـديث {أسـاس النفـاق الـذي يبـنى عليه الكـذب} وقـال تعالى: {إذا جاءك المنافقون قـالوا نشـهد إنك لرسـول الله والله يعلم إنك لرسـوله والله يشـهد إن المنــافقين لكــاذبون} وقــال تعـــالى: {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضـــله لنصـــدقن ولنكونن من الصالحين} {فلما آتـاهم من فضـله بخلـوا به وتولـوا

وهم معرضون} {فـأعقبهم نفاقا في قلـوبهم إلى يـوم يلقونه بما أخلفـوا الله ما وعـدوه وبما كـانوا يكـذبون} وقـال: {ومنهم من يلمزك في الصدقات} ومثل هذا كثير. و " بالجملة " فلا يسـتريب من تدبر ما يقول في أن الرجل لا يكـون مؤمنا بمجـرد تصـديق في القلب مع بغضه لله ولرسوله واستكباره عن عبادته ومعاداته له ولرسـوله ولهـذا كـان جمـاهير المرجئة على أن عمل القلب داخل في الإيمـان كما نقله أهل المقـالات عنهم منهم الأشـعري فإنه قال في كتابه في " المقالات ": اختلف المرجئة في الإيمان ما هو ؟ وهم " اثنتا عشـــرة فرقة ". " الفرقة الأولى " منهم: يزعمـون أن الإيمـان بالله هو المعرفة بالله وبرسـوله وبجميع ما جــاء من عند الله فقط وأن ما ســوى المعرفة من الإقــرار باللسـان والخضـوع بـالقلب والمحبة لله ولرسـوله والتعظيم لهما والخـوف والعمل بـالجوارح فليس بإيمـان وزعمـوا أن الكفر بالله هو الجهل به وهــذا قــول يحكى عن الجهم بن صــفوان قــال: وزعمت الجهمية أن الإنســان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلســانه أنه لا يكفر بجحــده وأن الإيمــان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا في القلب دون الجوارح قال: و " الفرقة الثانية " من المرجئـة: يزعمـون أن الإيمـان هو المعرفة بالله فقط والكفر به هو الجهل به فقط فلا إيمــــان بالله إلا المعرفة به ولا كفر بالله إلا الجهل به وإن قول القائـل: إن الله ثالث ثلاثة ليس بكفر ولكنه لا يظهر إلا من كـافر وذلك أن الله كفر من قــال ذلك وأجمع المســلمون أنه لا يقولـه إلا كــافر وزعمــوا أن معرفة الله هي المحبة له وهي الخضــوع للــه. وأصحاب هذا القول لا يزعمون أن الإيمان بالله إيمـان بالرسـول ويقولون: إنه لا يـؤمن بالله إلا من آمن بالرسـول. ليس ذلك لأن ذلك مسـتحيل ولكن الرسـول قــال {من لم يــؤمن بي فليس بمؤمن باللـه} وزعمـوا أيضا أن الصلاة ليست بعبـادة لله وأنه لا عبـادة إلا الإيمــان به وهو معرفته والإيمــان عنــدهم لا يزيد ولا ينقص وهو خصـلة واحـدة وكـذلك الكفر والقائل بهـذا القـول أبو الحسين الصالحي وقد ذكر الأشـعري في كتابه " المـوجز " قـول الصالحي هـذا وغـيره ثم قـال: والـذي أختـاره في الأسـماء قـول الصالحي وفي الخصوص والعموم أني لا أقطع بظاهر الخبر على العمـوم ولا على الخصـوص إذ كـان يحتمل في اللغة أن يكـون خاصا ويحتمل أن يكــــون عاما وأقف في ذلك ولا أقطع على عمـوم ولا على خصـوص إلا بتوقيف أو إجمـاع. ثم قـال في " المقالات ". و " الفرقة الثالثة من المرجئة ": يزعمون أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضــوع له , وهو تـــرك الاســتكبار عليه ,

والمحبة لله فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مـؤمن وزعمـوا أن إبليس كـان عارفا بالله غـير أنه كفر باسـتكباره على الله وهذا قول قوم من أصحاب يـونس السـمري. و " الفرقة الرابعة ": وهم أصحاب أبي شـمر ويـونس يزعمـون أن الإيمـان المعرفة بالله والمحبة له والخضوع له بالقلب والإقـرار به أنه واحد ليس كمثله شيء ما لم تقم عليه حجة الأنبياء , وإن كانت قد قـامت عليه حجة الأنبيـاء فالإيمـان [الإقـرار] بهم والتصـديق لهم والمعرفة لما جـاء من عند الله عنهم داخل في الإيمـان ولا يسمون كل خصلة من هذه الخصال إيمانا ولا بعض إيمـان حـتى تجتمع هذه الخصال فإذا اجتمعت سموها إيمانا لاجتماعها وشـبهوا ذلك بالبياض إذا كـان في دابة لم يسـموها بلقـاء إلا مع السـواد وجعلـوا تـرك كل خصـلة من هـذه الخصـال كفـرا ولم يجعلـوا الإيمان متبعضا ولا محتملا للزيادة والنقصان. وذكر عن " الخامسة " أصحاب أبي ثوبان: أن الإيمان هو الإقـرار بالله وبرسـله وما لا يجوز في العقل إلا أن يفعله. وذكر عن " الفرقة السادسة ": أن الإيمـان هو المعرفة بالله وبرسـله وفرائضه المجمع عليها والخضـوع له بجميع ذلك , والإقـرار باللسـان وزعمـوا أن خصـال الإيمان كل منها طاعة وأن كل واحدة إذا فعلت دون الأخرى لم تكن طاعة كالمعرفة بلا إقـرار وأن تـرك كل خصـلة من ذلك معصية ؛ وأن الإنسـان لا يكفر بـترك خصـلة واحـدة وأن النـاس يتفاضلون في إيمانهم ويكون بعضهم أعلم وأكـثر تصـديقا له من بعض وأن الإيمان يزيد ولا ينقص وهـذا قـول الحسـين بن محمد النجـار وأصـحابه. و " الفرقة السـابعة " الغيلانية أصـحاب غيلان يزعمـون: أن الإيمـان المعرفة بالله التامة ؛ والمحبة والخضـوع والإقرار بما جاء به الرسـول وبما جـاء من عند الله ؛ وذلك أن المعرفة الأولى عنده اضطرار فلذلك لم يجعلها من الإيمـان وكل هـؤلاء الـذين حكينا قولـهم: من " الشـمرية " و " الجهمية " و " الغيلانية " و " النجارية " ينكرون أن يكون في الكفار إيمـان وأن يقال فيهم بعض إيمان إذ كان الإيمـان لا يتبعض عنـدهم. قـال: و " الفرقة الثامنة " من المرجئة أصـحاب محمد بن شـبيب يزعمون: أن الإيمان الإقـرار بالله والمعرفة بأنه واحد ليس كمثله شيء. والإقرار والمعرفة بأنبيائه وبرسله وبجميع ما جاءت به من عند الله مما نص عليه المسلمون ونقلـوه عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم من الصـلاة والصـيام ونحو ذلك لا نـزاع بينهم فيـه. والخضـوع لله وهو تـرك الاسـتكبار عليه وزعمـوا أن إبليس قد عرف الله وأقر به وإنما كان كافرا لأنه اسـتكبر ولـولا اسـتكباره ما كان كافرا وأن الإيمان يتبعض ويتفاضل أهله وأن الخصلة من

الإيمان قد تكون طاعة وبعض إيمان ويكون صاحبها كـافرا بـترك بعض الإيمان ولا يكون مؤمنا إلا بإصابة الكل وكل رجل يعلم أن الله واحد ليس كمثله شـيء ويجحد الأنبيـاء فهو كـافر بجحـده الأنبيـاء وفيه خصـلة من الإيمـان وهي معرفته بالله سـبحانه. " الفرقة التاسـعة ": من المرجئة المنتسـبين إلى أبي حنيفة وأصحابه يزعمـون أن الإيمـان المعرفة بالله وبالرسـول والإقـرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير. " الفرقة العاشرة ": من المرجئة أصحاب أبي معاذ التومني يزعمـون: أن الإيمـان تـرك ما عظم من الكبـائر وهو اسم لخصـال إذا تركها أو تـرك خصـلة منها كـان كـافرا فتلك الخصـلة الـتي يكفر بتركها إيمـان وكل طاعة إذا تركها التـارك لم يجمع المسـلمون على تكفـيره فتلك الطاعة شريعة من شرائع الإيمـان تاركها إن كـانت فريضة يوصف بالفسق فيقال له إنه يفسق ولا يسمى بالفسق ولا يقال فاسق وليست تخرج الكبائر من الإيمان إذا لم تكن كفرا وتـارك الفرائض مثل الصلاة والصـيام والحج على الجحـود بها والـرد لها والاستخفاف بها كافر بالله وإنما كفر للاستخفاف والـرد والجحـود , وإن تركها غير مسـتحل لتركها متشـاغلا مسـوفا يقـول: السـاعة أصـلي وإذا فـرغت من لهـوي وعملي فليس بكـافر وإن كـان يصـلي يوما ووقتا من الأوقـات. ولكن نفسـقه. وكـان أبو معـاذ يقـول: من قتل نبيا أو لطمه كفر وليس من أجل اللطمة كفر ولكن من أجل الاسـتخفاف والعـداوة والبغض لـه. والفرقة " الحادية عشر " من المرجئـة: أصـحاب بشر المريسي يقولـون: إن الإيمان هو التصديق لأن الإيمان في اللغة هو التصديق وما ليس بتصديق فليس بإيمان ويزعم أن التصديق يكون بالقلب وباللسان جميعا وإلى هـذا القـول كـان يـذهب ابن الراونـدي وكـان ابن الراونـدي يـزعم أن الكفر هو الجحد والإنكـار والسـتر والتغطية وليس يجوز أن يكون الكفر إلا ما كان في اللغة كفرا ولا يجـوز إيمـان إلا ما كـان في اللغة إيمانا وكـان يـزعم أن السـجود للشـمس ليس بكفر ولا السـجود لغـير الله كفر ولكنه علم على الكفر لأن الله بين أنه لا يسـجد للشـمس إلا كـافر. قـال و " الفرقة الثانية عشر " من المرجئـة: الكرامية أصـحاب محمد بن كـرام يزعمـون أن الإيمـان هو الإقـرار والتصـديق باللسـان دون القلب وأنكـروا أن تكـون معرفة القلب أو شـيء غـير التصـديق باللسان إيمانا. فهـذه الأقـوال الـتي ذكرها الأشـعري عن المرجئة يتضـمن أكثرها أنه لا بد في الإيمـان من بعض أعمـال القلـوب عنـدهم وإنما نـازع في ذلك فرقة يسـيرة: كجهم والصـالحي. وقد ذكر أيضا في " المقـالات " جملة قـول أصـحاب الحـديث وأهل

السنة. قال: جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يردون من ذلك شيئا وأن الله إله واحد فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وأن الله على عرشه كما قال: {الرحمن على العرش استوى} وأن له يدين بلا كيف كما قال: {خلقت بيدي} وكما قال: {بل يداه مبسوطتان} وأن له عينين كما قال: {تجري بأعيننا} وأن له وجها كما قال: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}. وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج. إلى أن قال: ويقولون القرآن كلام الله غير مخلوق والكلام في الوقف واللفظ بدعة من قال بالوقف أو اللفظ فهو مبتدع عندهم لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق ولا يقال غير مخلوق. إلى أن قال: ولا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه: كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر وهم بما معهم من الإيمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر , والإيمان عندهم: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم وما أصابهم لم يكن ليخطئهم والإسلام هو: أن تشهد أن لا إله إلا الله على ما جاء في الحديث والإسلام عندهم غير الإيمان. إلى أن قال: ويقرون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق. وذكر كلاما طويلا ثم قال في آخره: وبكل ما ذكرناه من قولهم نقول: وإليه نذهب. فهذا قوله في هذا الكتاب وافق فيه أهل السنة وأصحاب الحديث بخلاف القول الذي نصره في الموجز. والمقصود هنا أن عامة فرق الأمة تدخل ما هو من أعمال القلوب حتى عامة فرق المرجئة تقول بذلك وأما المعتزلة والخوارج وأهل السنة وأصحاب الحديث فقولهم في ذلك معروف وإنما نازع في ذلك من اتبع جهم بن صفوان من المرجئة وهذا القول شاذ كما أن قول الكرامية الذين يقولون هو مجرد قول اللسان شاذ أيضا. وهذا أيضا مما ينبغي الاعتناء به فإن كثيرا ممن تكلم في " مسألة الإيمان " هل تدخل فيه الأعمال ؟ وهل هو قول وعمل ؟ يظن أن النزاع إنما هو في أعمال الجوارح وأن المراد بالقول قول اللسان وهذا غلط ؛ بل القول المجرد عن اعتقاد الإيمان ليس إيمانا باتفاق المسلمين ؛ فليس مجرد التصديق بالباطن هو الإيمان عند عامة المسلمين إلا من شذ من أتباع جهم والصالحي وفي قولهم من السفسطة العقلية والمخالفة في

الأحكـام الدينية أعظم مما في قـول ابن كـرام إلا من شذ من أتباع ابن كـرام وكـذلك تصـديق القلب الـذي ليس معه حب لله ولا تعظيم بل فيه بغض وعـداوة لله ورسـله ليس إيمانا باتفـاق المسـلمين. وقـول ابن كـرام فيه مخالفة في الاسم دون الحكم فإنه - وإن سـمى المنـافقين مؤمـنين - يقـول إنهم مخلـدون في النـــار فيخـــالف الجماعة في الاسم دون الحكم وأتبـــاع جهم يخالفون في الاسم والحكم جميعا.

(فصل) (ص551)

إذا عـرف أن أصل الإيمـان في القلب فاسم " الإيمـان " تـارة يطلق على ما في القلب من الأقـوال القلبية والأعمـال القلبية من التصـــديق والمحبة والتعظيم ونحو ذلك وتكـــون الأقـــوال الظـاهرة والأعمـال لوازمه وموجباته ودلائله وتـارة على ما في القلب والبـدن جعلا لمـوجب الإيمـان ومقتضـاه داخلا في مسـماه وبهذا يتبين أن الأعمال الظاهرة تسـمى إسـلاما وأنها تـدخل في مسمى الإيمان تـارة ولا تـدخل فيه تـارة. وذلك أن الاسم الواحد تختلف دلالته بالإفراد والاقتران فقد يكون عند الإفراد فيه عمـوم لمعنـيين وعند الاقـتران لا يـدل إلا على أحـدهما كلفظ الفقـير والمسـكين إذا أفـرد أحـدهما تنـاول الآخر وإذا جمع بينهما كـان لكل واحد مســمى يخصه وكـــذلك لفظ المعـــروف والمنكر إذا أطلقا كما في قولـه تعـالى {يـأمرهم بـالمعروف وينهـاهم عن المنكر} دخل فيه الفحشاء والبغي وإذا قرن بالمنكر أحـدهما كما في قولـــه: {إن الصـلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكـر} أو كلاهما كما في قولـه تعالى: {وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي} كـان اسم المنكر مختصا بما خـــرج من ذلك على قـــول أو متنـــاولا للجميع على قول - بنـاء على أن الخـاص المعطـوف على العـام هل يمنع شمول العام له ؟ أو يكون قد ذكر مرتين فيه نـزاع - والأقوال والأعمـال الظـاهرة (نتيجة الأعمـال الباطنة ولازمهـا. وإذا أفرد اسم " الإيمان " فقد يتناول هذا وهـذا كما في قـول النـبي صلى الله عليه وسلم: {الإيمان بضع وسبعون شـعبة أعلاها قـول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريـق}. وحينئذ فيكـون الإسلام داخلا في مسمى الإيمان وجـزءا منه فيقـال حينئـذ: إن " الإيمـان " اسم لجميع الطاعـات الباطنة والظـاهرة. ومنه {قولـه صـلى الله عليه وسـلم لوفد عبد القيس آمـركم بالإيمـان بالله أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـدا رسـول الله وإقـام الصلاة وإيتـاء الزكـاة وصـوم رمضـان وتـؤدوا خمس المغنم} أخرجـــاه في الصـــحيحين. ففسر الإيمـــان هنا بما

فسر به الإسلام لأنه أراد بالشهادتين هنا أن يشهد بهما باطنا وظاهرا وكان الخطاب لوفد عبد القيس وكانوا من خيار الناس وهم أول من صلى الجمعة ببلدهم بعد جمعة أهل المدينة كما {قال ابن عباس: أول جمعة جمعت في الإسلام بعد جمعة المدينة جمعة بجواثى - قرية من قرى البحرين - وقالوا يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر فصل نعمل به وندعو إليه من وراءنا وأرادوا بذلك أهل نجد من تميم وأسد وغطفان وغيرهم كانوا كفارا} ؛ فهؤلاء كانوا صادقين راغبين في طلب الدين فإذا أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأقوال وأعمال ظاهرة فعلوها باطنا وظاهرا فكانوا بها مؤمنين. وأما إذا قرن الإيمان بالإسلام ؛ فإن الإيمان في القلب والإسلام ظاهر كما في " المسند " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {الإسلام علانية والإيمان في القلب والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره} ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام الذي هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج ؛ لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله. والانقياد له وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنا ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد. وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيمانا جازما امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الإيمان القلبي التام ؛ وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه في زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع في الآخرة ؛ فإن هذا ممتنع إذ لا يحصل الإيمان التام في القلب إلا ويحصل في الظاهر موجبه بحسب القدرة فإن من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبا جازما وهو قادر على مواصلته ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك. وأبو طالب إنما كانت محبته للنبي صلى الله عليه وسلم لقرابته منه لا لله وإنما نصره وذب عنه لحمية النسب والقرابة ؛ ولهذا لم يتقبل الله ذلك منه وإلا فلو كان ذلك عن إيمان في القلب لتكلم بالشهادتين ضرورة والسبب الذي أوجب نصره للنبي صلى الله عليه وسلم - وهو الحمية - هو الذي أوجب امتناعه من الشهادتين بخلاف أبي بكر الصديق ونحوه قال الله تعالى {وسيجنبها الأتقى} {الذي يؤتي ماله يتزكى} {وما لأحد عنده من نعمة تجزى} {إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى} {ولسوف يرضى} ومنشأ الغلط في هذه المواضع من وجوه. (أحدها) أن

العلم والتصديق مستلزم لجميع موجبات الإيمان. (الثاني): ظن الظان أن ما في القلوب لا يتفاضل الناس فيه. (الثالث) ظن الظان أن ما في القلب من الإيمان المقبول يمكن تخلف القول الظاهر والعمل الظاهر عنه. (الرابع): ظن الظان أن ليس في القلب إلا التصديق وأن ليس الظاهر إلا عمل الجوارح. والصواب أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن. و " المرجئة " أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان ؛ فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن فبقي النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان. و " التحقيق " أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازما للمسمى - بحسب إفراد الاسم واقترانه - فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وإن كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات} فقد يقال: اسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له ؛ وقد يقال: بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام ؛ وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء - كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري ؟ وغيره -: الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل , واللسان يصدق ما في القلب , والعمل يصدق القول كما يقال: صدق عمله قوله. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم {العينان تزنيان وزناهما النظر والأذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه} والتصديق يستعمل في الخبر وفي الإرادة يقال: فلان صادق العزم وصادق المحبة وحملوا حملة صادقة. و " السلف " اشتد نكيرهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الإيمان وقالوا إن الإيمان يتماثل الناس فيه ولا ريب أن قولهم بتساوي إيمان الناس من أفحش الخطأ بل لا يتساوى الناس في التصديق ولا في الحب ولا في الخشية ولا في العلم ؛ بل يتفاضلون من وجوه كثيرة. و " أيضا " فإخراجهم العمل يشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضا وهذا باطل قطعا فإن من صدق الرسول وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه فهو كافر قطعا بالضرورة وإن أدخلوا أعمال القلوب في الإيمان أخطأوا أيضا ؛ لامتناع قيام الإيمان بالقلب من غير حركة بدن.

وليس المقصـــود هنا ذكر كل معين ؛ بل من كـــان مؤمنا بالله ورسوله بقلبه هل يتصور إذا رأى الرسول وأعداءه يقاتلونه وهو قادر على أن ينظر إليهم ويحض على نصر الرسول بما لا يضره هل يمكن مثل هـذا في العـادة إلا أن يكـون منه حركة ما إلى نصر الرسول ؟ فمن المعلوم أن هذا ممتنع ؛ فلهذا كان الجهـاد المتعين بحسب الإمكان من الإيمان وكان عدمه دليلا على انتفـاء حقيقة الإيمان بل قد ثبت في الصحيح عنه {من مـات ولم يغز ولم يحـدث نفسه بـالغزو مـات على شعبة نفـاق} وفي الحـديث دلالة على أنه يكـــون فيه بعض شـــعب النفـــاق مع ما معه من الإيمـــان ومنه قوله تعـالى: {إنما المؤمنـــون الـــذين آمنـــوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصـــــادقون}. و " أيضا " فقد ثبت في الصـــــحيح عن النـــبي صـــلى الله عليه وسـلم أنه قـال {من رأى منكم منكــرا فليغـيره بيـده فـإن لم يسـتطع فبلسـانه فـإن لم يسـتطع فبقلبه وذلك أضـعف الإيمـــان وفي رواية وليس وراء ذلك من الإيمـــان مثقـال حبة خـردل}. فهـذا يـبين أن القلب إذا لم يكن فيه بغض ما يكرهه الله من المنكرات كـان عادما للإيمـان والبغض والحب من أعمـال القلـوب. ومن المعلـوم أن إبليس ونحـوه يعلمـون أن الله عز وجل حرم هذه الأمـور ولا يبغضـونها بل يـدعون إلى ما حـــرم الله ورســـوله. و " أيضا " فهـــؤلاء القـــائلون بقـــول جهم والصالحي قد صرحوا بـأن سب الله ورسـوله ؛ والتكلم بـالتثليث وكل كلمة من كلام الكفر ليس هو كفرا في الباطن ولكنه دليل في الظـاهر على الكفر ويجـوز مع هـذا أن يكـون هـذا السـاب الشـاتم في البـاطن عارفا بالله موحـدا له مؤمنا به فـإذا أقيمت عليهم حجة بنص أو إجماع أن هذا كافر باطنا وظاهرا. قالوا: هذا يقتضي أن ذلك مسـتلزم للتكـذيب البـاطن وأن الإيمـان يسـتلزم عـدم ذلك ؛ فيقـال لهم: معنا أمـران معلومـان. (أحـدهما): معلـوم بالاضطرار من الدين. و (الثاني) معلوم بالاضطرار من أنفسنا عند التأمـل. أما " الأول ": فإنا نعلم أن من سب الله ورسـوله طوعا بغير كـره ؛ بل من تكلم بكلمـات الكفر طائعا غـير مكـره ومن اســتهزأ بالله وآياته ورســوله فهو كـــافر باطنا وظـــاهرا وأن من قـــال: إن مثل هـــذا قد يكـــون في البـــاطن مؤمنا بالله وإنما هو كـافر في الظـاهر فإنه قـال قـولا معلـوم الفسـاد بالضـرورة من الـدين. وقد ذكر الله كلمـات الكفـار في القـرآن وحكم بكفـرهم واستحقاقهم الوعيد بها ولو كانت أقوالهم الكفرية بمنزلة شـــهادة الشـــهود عليهم أو بمنزلة الإقـــرار الـــذي يغلط فيه المقر لم يجعلهم الله من أهل الوعيد بالشهادة التي قد تكـون صـدقا وقد

تكون كذبا بل كان ينبغي أن لا يعذبهم إلا بشرط صدق الشهادة وهذا كقوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة} {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} وأمثال ذلك. وأما " الثاني ": فالقلب إذا كان معتقدا صدق الرسول وأنه رسول الله وكان محبا لرسول الله معظما له امتنع مع هذا أن يلعنه ويسبه فلا يتصور ذلك منه إلا مع نوع من الاستخفاف به وبحرمته فعلم بذلك أن مجرد اعتقاد أنه صادق لا يكون إيمانا إلا مع محبته وتعظيمه بالقلب. و " أيضا " فإن الله سبحانه قال: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت} وقال: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى} فتبين أن الطاغوت يؤمن به ويكفر به. ومعلوم أن مجرد التصديق بوجوده وما هو عليه من الصفات يشترك فيه المؤمن والكافر ؛ فإن الأصنام والشيطان والسحر يشترك في العلم بحاله المؤمن والكافر. وقد قال الله تعالى في السحر: {حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه} إلى قوله: {ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق} فهؤلاء الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون يعلمون أنه لا خلاق لهم في الآخرة ومع هذا فيكفرون. وكذلك المؤمن بالجبت والطاغوت إذا كان عالما بما يحصل بالسحر من التفريق بين المرء وزوجه ونحو ذلك من الجبت وكان عالما بأحوال الشيطان والأصنام وما يحصل بها من الفتنة لم يكن مؤمنا بها مع العلم بأحوالها. ومعلوم أنه لم يعتقد أحد فيها أنها تخلق الأعيان وأنها تفعل ما تشاء ونحو ذلك من خصائص الربوبية ولكن كانوا يعتقدون أنه يحصل بعبادتها لهم نوع من المطالب كما كانت الشياطين تخاطبهم من الأصنام وتخبرهم بأمور. وكما يوجد مثل ذلك في هذه الأزمان في الأصنام التي يعبدها أهل الهند والصين والترك وغيرهم وكان كفرهم بها الخضوع لها والدعاء والعبادة واتخاذها وسيلة ونحو ذلك لا مجرد التصديق بما يكون عند ذلك من الآثار فإن هذا يعلمه العالم من المؤمنين ويصدق بوجوده لكنه يعلم ما يترتب على ذلك من الضرر في الدنيا والآخرة فيبغضه ؛ والكافر قد يعلم وجود ذلك الضرر لكنه يحمله حب العاجلة على الكفر. يبين ذلك قوله: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم} {ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين} {أولئك الذين طبع الله

على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون} {لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون} فقد ذكر تعالى من كفر بالله من بعد إيمانه وذكر وعيده في الآخرة ثم قال {ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة}. وبين تعالى أن الوعيد استحقوه بهذا. ومعلوم أن باب التصديق والتكذيب والعلم والجهل ليس هو من باب الحب والبغض وهؤلاء يقولون إنما استحقوا الوعيد لزوال التصديق والإيمان من قلوبهم وإن كان ذلك قد يكون سببه حب الدنيا على الآخرة والله سبحانه وتعالى جعل استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران واستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضر في الآخرة وبأنه ما له في الآخرة من خلاق. و " أيضا " فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره ؛ لأن الإكراه على ذلك ممتنع فعلم أن التكلم بالكفر كفر لا في حال الإكراه. وقوله تعالى: {ولكن من شرح بالكفر صدرا} أي: لاستحبابه الدنيا على الآخرة ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: {يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا} والآية نزلت في عمار بن ياسر وبلال بن رباح وأمثالهما من المؤمنين المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك من كلمات الكفر فمنهم من أجاب بلسانه كعمار ومنهم من صبر على المحنة كبلال ولم يكره أحد منهم على خلاف ما في قلبه بل أكرهوا على التكلم فمن تكلم بدون الإكراه لم يتكلم إلا وصدره منشرح به. وأيضا فقد {جاء نفر من اليهود إلى النبي فقالوا: نشهد إنك لرسول ولم يكونوا مسلمين بذلك ؛ لأنهم قالوا ذلك على سبيل الإخبار عما في أنفسهم أي نعلم ونجزم أنك رسول الله قال: فلم لا تتبعوني ؟ قالوا: نخاف من يهود} فعلم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم. فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين فكانوا كفارا في الباطن وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفارا في الظاهر والباطن وكذلك أبو طالب قد استفاض عنه أنه كان يعلم بنبوة محمد وأنشد عنه: ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا لكن امتنع من الإقرار بالتوحيد والنبوة حبا لدين سلفه وكراهة أن يعيره قومه فلما لم يقترن بعلمه الباطن الحب والانقياد الذي يمنع ما يضاد ذلك من حب الباطل وكراهة الحق لم يكن مؤمنا. وأما إبليس وفرعون واليهود

ونحوهم فما قام بأنفسهم من الكفر وإرادة العلو والحسد منع من حب الله وعبادة القلب له الذي لا يتم الإيمان إلا به وصار في القلب من كراهية رضوان الله واتباع ما أسخطه ما كان كفرا لا ينفع معه العلم.

(فصل) (ص562)

والتفاضل في الإيمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه متعددة: (أحدها) الأعمال الظاهرة ؛ فإن الناس يتفاضلون فيها وتزيد وتنقص وهذا مما اتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصان لكن نزاعهم في دخول ذلك في مسمى الإيمان. فالنفاة يقولون هو من ثمرات الإيمان ومقتضاه فأدخل فيه مجازا بهذا الاعتبار وهذا معنى زيادة الإيمان عندهم ونقصه أي زيادة ثمراته ونقصانها فيقال قد تقدم أن هذا من لوازم الإيمان وموجباته فإنه يمتنع أن يكون إيمان تام في القلب بلا قول ولا عمل ظاهر وأما كونه لازما أو جزءا منه فهذا يختلف بحسب حال استعمال لفظ الإيمان مفردا أو مقرونا بلفظ الإسلام والعمل كما تقدم. وأما قولهم الزيادة في العمل الظاهر لا في موجبه ومقتضيه فهذا غلط فإن تفاضل معلول الأشياء. ومقتضاها يقتضي تفاضلها في أنفسها وإلا فإذا تماثلت الأسباب الموجبة لزم تماثل موجبها ومقتضاها فتفاضل الناس في الأعمال الظاهرة يقتضي تفاضلهم في موجب ذلك ومقتضيه ومن هذا يتبين: (الوجه الثاني): في زيادة الإيمان ونقصه: وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له وفي سلامة القلوب من الرياء والكبر والعجب ونحو ذلك والرحمة للخلق والنصح لهم ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار} وقال تعالى: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم} إلى قوله: {أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا}. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {والله إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده} وقال: {لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين} {وقال له عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي قال: لا يا عمر حتى

أكــــون أحب إليك من نفسك قــــال: فلأنت أحب إلي من نفسي قـال: الآن يا عمـر}. وهـذه الأحـاديث ونحوها في الصـحاح وفيها بيان تفاضل الحب والخشية وقد قال تعـالى: {والـذين آمنـوا أشد حبا للــه} وهــذا أمر يجــده الإنســان في نفسه فإنه قد يكــون الشيء الواحد يحبه تارة أكـثر مما يحبه تـارة ويخافه تـارة أكـثر مما يخافه تارة ولهذا كـان أهل المعرفة من أعظم النـاس قـولا بدخول الزيـادة والنقصـان فيه لما يجـدون من ذلك في أنفسـهم ومن هـذا قولـه تعـالى: {الـذين قـال لهم النـاس إن النـاس قد جمعــوا لكم فاخشــوهم فـزادهم إيمانا وقــالوا حســبنا الله ونعم الوكيـــل} وإنما زادهم طمأنينة وســكونا. وقـــال صـــلى الله عليه وسلم: {أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقـا}. (الوجه الثـالث): أن نفس التصــــديق والعلم في القلب يتفاضل باعتبـــــار الإجمــــال والتفصـيل فليس تصـديق من صـدق الرســول مجملا من غــير معرفة منه بتفاصـيل أخبـاره كمن عــرف ما أخــبر به عن الله وأســمائه وصــفاته والجنة والنــار والأمم وصــدقه في ذلك كله وليس من التزم طاعته مجملا ومـات قبل أن يعـرف تفصـيل ما أمره به كمن عاش حتى عـرف ذلك مفصلا وأطاعه فيـه. (الوجه الرابـع): أن نفس العلم والتصـديق يتفاضل ويتفـاوت كما يتفاضل سـائر صـفات الحي من القـدرة والإرادة والسـمع والبصر والكلام بل سائر الأعراض من الحركة والسواد والبياض ونحو ذلك ؛ فإذا كانت القـدرة على الشـيء تتفـاوت فكـذلك الإخبـار عنه يتفـاوت وإذا قـــال القائل العلم بالشـــيء الواحد لا يتفاضل كـــان بمنزلة قولـه القـــدرة على المقـــدور الواحد لا تتفاضل وقولــــه: ورؤية الشــــيء الواحد لا تتفاضل ومن المعلــــوم أن الهلال المــــرئي يتفاضل الناس في رؤيته وكذلك سـمع الصـوت الواحد يتفاضـلون في إدراكه وكــــذلك الكلمة الواحـــــدة يتكلم بها الشخصــــــان ويتفاضــلون في النطق بها وكــذلك شم الشــيء الواحد وذوقه يتفاضل الشخصـان فيـه. فما من صـفة من صـفات الحي وأنـواع إدراكاته وحركاته بل وغــير صــفات الحي إلا وهي تقبل التفاضل والتفــاوت إلى ما لا يحصــره البشر حــتى يقــال: ليس أحد من المخلــوقين يعلم شــيئا من الأشــياء مثل ما يعلمه الله من كل وجه بل علم الله بالشيء أكمل من علم غيره به كيف ما قــدر الأمر وليس تفاضل العلمين من جهة الحدوث والقدم فقط ؛ بل من وجــوه أخــرى. والإنســان يجد في نفسه أن علمه بمعلومه يتفاضل حاله فيه كما يتفاضل حاله في ســـمعه لمســـموعه ؛ ورؤيته لمرئيه , وقدرته على مقـــــــدوره وحبه لمحبوبه وبغضه لبغيضه ورضـاه بمرضـيه وسـخطه لمسـخوطه , وإرادته لمـراده ,

وكراهيته لمكروهه ومن أنكر التفاضل في هــذه الحقــائق كــان مسفسطا. (الوجه الخـامس): أن التفاضل يحصل من هـذه الأمـور من جهة الأسـباب المقتضـية لها ؛ فمن كــان مسـتند تصـديقه ومحبته أدلة توجب اليقين وتـبين فسـاد الشـبهة العارضة لم يكن بمنزلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك بل من جعل له علوم ضــــرورية لا يمكنه دفعها عن نفسه لم يكن بمنزلة من تعارضه الشـبه ويريد إزالتها بـالنظر والبحث ولا يسـتريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها وبفساد الشـبه المعارضة لـذلك وبيـان بطلان حجة المحتج عليها ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبه المعارضة له ؛ فإن الشـيء كلما قـويت أسـبابه وتعـددت وانقطعت موانعه واضـمحلت كـان أوجب لكماله وقوته وتمامــه. (الوجه السـادس): أن التفاضل يحصل في هــذه الأمـور من جهة دوام ذلك وثباته وذكـره واستحضـاره كما يحصل البغض من جهة الغفلة عنه والإعــراض والعلم والتصـديق والحب والتعظيم وغير ذلك فما في القلب هي صفات وأعراض وأحـوال تدوم وتحصل بدوام أسبابها وحصول أسبابها. والعلم وإن كان في القلب فالغفلة تنافي تحققه والعالم بالشيء في حـال غفلته عنه دون العالم بالشيء في ذكره له. قال عمـير بن حـبيب الخطمي من أصـحاب النـبي صـلى الله عليه وسـلم: الإيمـان يزيد وينقص قالوا: وما زيادته ونقصه ؟ قال: إذا حمدنا الله وذكرنـاه وسـبحناه فـذلك زيادته فـإذا غفلنا ونسـينا وضـيعنا فـذلك نقصـانه. (الوجه السـابع) أن يقــال: ليس فيما يقــوم بالإنســان من جميع الأمــور أعظم تفاضلا وتفاوتا من الإيمان فكلما تقـرر إثباته من الصـفات والأفعال مع تفاضـله فالإيمـان أعظم تفاضلا من ذلـك. مثـال ذلك أن الإنسان يعلم من نفسه تفاضل الحب الذي يقوم بقلبه سواء كــان حبا لولــده أو لامرأته أو لرياســته أو وطنه أو صــديقه أو صورة من الصور أو خيله أو بستانه أو ذهبه أو فضته وغير ذلك من أمواله فكما أن الحب أوله علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم صـبابة لانصـباب القلب نحـوه ثم غـرام للزومه القلب كما يلـزم الغريم غريمه ثم يصير عشقا إلى أن يصير تتيما - والتـتيم التعبد وتيم الله عبد الله - فيصـير القلب عبـدا للمحبـوب مطيعا له لا يستطيع الخروج عن أمره وقد آل الأمر بكثير من عشاق الصـور إلى ما هو معـــروف عند النـــاس مثل من حمله ذلك على قتل نفسه وقتل معشوقه أو الكفر والـردة عن الإسـلام أو أفضى به إلى الجنــــون وزوال العقل أو أوجب خروجه عن المحبوبـــــات العظيمة من الأهل والمال والرياسة أو إمـراض جسـمه وأسـنانه. فمن قال الحب لا يزيد ولا ينقص كـان قولـه من أظهر الأقـوال

فســادا ومعلــوم أن النــاس يتفاضــلون في حب الله أعظم من تفاضـلهم في حب كل محبـوب فهو سـبحانه اتخذ إبـراهيم خليلا واتخذ محمــدا أيضا خليلا كما اســتفاض عنه أنه قــال: {لو كنت متخـــــذا خليلا من أهل الأرض لاتخـــــذت أبا بكر خليلا ؛ ولكن صـاحبكم خليل اللـه} يعـني نفسه صـلى الله عليه وسـلم. وقـال: {إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبـراهيم خليلا} والخلة أخص من مطلق المحبة فإن الأنبيـاء عليهم السـلام والمؤمـنين يحبـون الله ويحبهم الله كما قال: {فسوف يـأتي الله بقـوم يحبهم ويحبونـه} الآية. وقال تعالى: {والذين آمنوا أشد حبا لله} وقد أخـبر الله أنه يحب المتقين ويحب المقسطين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وكـان النبي صلى الله عليه وسلم يخـبر بحبه لغـير واحد كما ثبت عنه صـلى الله عليه وسـلم في الصـحيح {أنه قـال للحسن وأسـامة: اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهمـا} {وقــال له عمــرو بن العاص أي الناس أحب إليك ؟ قال: عائشة قال فمن الرجال ؟ قال: أبوهـا}. وقـال: {والله إني لأحبكم}. والنـاس في حب الله يتفـاوتون ما بين أفضل الخلق محمد وإبـراهيم إلى أدنى النـاس درجة مثل من كــان في قلبه مثقــال ذرة من إيمـــان وما بين هذين الحدين من الـدرجات لا يحصـيه إلا رب الأرض والسـموات فإنه ليس في أجنــاس المخلوقــات ما يتفاضل بعضه على بعض كبني آدم فإن الفرس الواحدة ما تبلغ أن تساوي ألف ألف وقد ثبت في الصــحيحين من {حــديث أبي ذر أنه كــان جالسا عند النبي صلى الله عليه وسـلم إذ مر به رجل من أشـراف النـاس فقال: يا أبا ذر أتعرف هذا ؟ قلت: نعم يا رسول الله هذا حــري إن خطب أن ينكح وإن قـــال أن يســـمع لقولـه وإن غـــاب أن يسـأل عنه ثم مر برجل من ضـعفاء المسـلمين فقـال: يا أبا ذر أتعـرف هـذا ؟ قلت: نعم يا رسـول الله هـذا رجل من ضـعفاء الناس هـذا حـري إن خطب ألا ينكح وإن قـال ألا يسـمع لقولـه وإن غــاب ألا يســأل عنه فقــال: يا أبا ذر لهــذا خــير من ملء الأرض مثل هذا}. فقد أخبر الصـادق الـذي لا يجـاوز فيما يقـول: إن الواحد من بني آدم يكون خيرا من ملء الأرض من الآدميين وإذا كـان الواحد منهم أفضل من الملائكة والواحد منهم شر من البهــائم كــان التفاضل الــذي فيهم أعظم من تفاضل الملائكــة. وأصل تفاضــلهم إنما هو بمعرفة الله ومحبته فعلم أن تفاضــلهم في هـذا لا يضـبطه إلا الله وكل ما يعلم من تفاضـلهم في حب الشــيء من محبوبــاتهم فتفاضــلهم في حب الله أعظم. وهكــذا تفاضلهم في خوف ما يخافونه وتفاضلهم في الذل والخضوع لما

يــــذلون له ويخضـــعون وكـــذلك تفاضـــلهم فيما يعرفونه من المعروفـات ويصـدقون به ويقـرون به فـإن كـانوا يتفاضـلون في معرفة الملائكة وصــفاتهم والتصــديق بهم فتفاضــلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به أعظم. وكذلك إن كـانوا يتفاضـلون في معرفة روح الإنسـان وصـفاتها والتصـديق بها أو في معرفة الجن وصــفاتهم وفي التصــديق بهم أو في معرفة ما في الآخــرة من النعيم والعــذاب - كما أخــبروا به من المــأكولات والمشــروبات والملبوســات والمنكوحــات والمســكونات - فتفاضــلهم في معرفة الله وصــفاته والتصــديق به أعظم من تفاضــلهم في معرفة " الــروح " الــتي هي النفس الناطقــة. ومعرفة ما في الآخــرة من النعيم والعـــذاب. بل إن كـــانوا متفاضـــلين في معرفة أبـــدانهم وصــفاتها وصــحتها ومرضــها وما يتبع ذلك فتفاضــلهم في معرفة الله أعظم وأعظم ؛ فـإن كل ما يعلم ويقـال يـدخل في معرفة الله إذ لا موجــــود إلا وهو خلقه وكل ما في المخلوقــــات من الصفات والأسماء والأقدار والأفعـال فإنها شـواهد ودلائل على ما لله سبحانه من الأسـماء الحسـنى والصـفات العلى إذ كل كمـال في المخلوقـــات فمن أثر كماله , وكل كمـــال ثبت لمخلــــوق فالخــالق أحق به , وكل نقص تــنزه عنه مخلــوق فالخــالق أحق بتنزيهه عنه , وهذا على طريق كل طائفة واصطلاحها. فهذا يقول كمــال المعلــول من كمــال علته وهــذا يقــول: كمــال المصــنوع المخلوق من كمال صانعه وخالقه. وفي الحديث الـذي رواه أحمد في المسـند ورواه ابن حبـان في صـحيحه عن ابن مسـعود عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {ما أصـاب عبـدا هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبـدك ابن أمتك ناصـيتي بيـدك مـاض في حكمك عــدل في قضــاؤك أســألك بكل اسم هو لك ســميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عنــدك أن تجعل القــرآن ربيع قلــبي ونــور صــدري وجلاء حــزني وذهــاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحــا. قــالوا. يا رســول الله ألا نتعلمهن ؟ قــال: بلى ينبغي لمن ســمعهن أن يتعلمهن}. فقد أخــبر في هــذا الحديث أن لله أسماء اســتأثر بها في علم الغيب عنـده وأسـماء الله متضــمنة لصــفاته ليست أســماء أعلام محضة بل أســماؤه تعالى: كالعليم والقـدير والسـميع والبصـير والـرحيم والحكيم ونحو ذلك كل اسم يدل على ما لم يدل عليه الاسم الآخر من معاني صــفاته مع اشــتراكها كلها في الدلالة على ذاته وإذا كــان من أسمائه ما اختص هو بمعرفته ومن أسمائه ما خص به من شـاء من عبـــــاده علم أن تفاضل النـــــاس في معرفته أعظم من

تفاضلهم في معرفة كل ما يعرفونه. وبهذا يتبين لك أن من زعم من أهل الكلام والنظر أنهم عرفـــوا الله حق معرفته بحيث لم يبق له صـفة إلا عرفوها وأن ما لم يعرفـوه ولم يقم لهم دليل على ثبوته كـان معـدوما منتفيا في نفس الأمر قـوم غـالطون مخطئـون مبتـدعون ضـالون وحجتهم في ذلك داحضة فـإن عـدم الـدليل القطعي والظـني على الشـيء دليل على انتفائه إلا أن يعلم أن ثبوته مسـتلزم لـذلك الـدليل. مثل أن يكـون الشـيء لو وجد لتوفرت الهمم والدواعي على نقله فيكـون هـذا لازما لثبوته فيسـتدل بانتفـاء اللازم على انتفـاء الملـزوم ؛ كما يعلم أنه لو كـان بين الشـام والحجـاز مدينة عظيمة مثل بغـداد ومصر لكـان النـاس ينقلـون خبرها فـإذا نقل ذلك واحد واثنـان وثلاثة علم كذبهم. وكما يعلم أنه لو ادعى النبوة أحد على عهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم مثل مسـيلمة والعنسي وطليحة وسـجاح لنقل الناس خبره كما نقلوا أخبـار هـؤلاء ولو عـارض القـرآن معـارض أتى بما يظن النـاس أنه مثل القـرآن لنقل كما نقل قـرآن مسيلمة الكذاب وكما نقلوا الفصول والغايات لأبي العلاء المعـري وكما نقلـوا غـير ذلك من أقـوال المعارضـين (و لو بخرافـات لا يظن عاقل أنها مثله فكـان النقل لما تظهر فيه المشـابهة والمماثلة أقوى في العادة والطباع في ذلك وأرغب - سواء كانوا محـبين أو مبغضـين - هـذا أمر جبل عليه بنو آدم. كما يعلم أن علي بن أبي طـالب لو طلب الخلافة على عهد أبي بكر وعمر وعثمـان وقاتل عليها لنقل ذلك النـاس كما نقلـوا ما جـرى بعد هؤلاء ؛ كما يعلم أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم لو أمـره أن يصـلي بالنـاس صـلاتهم لنقلـوا ذلك كما نقلـوا أمـره لأبي بكر وصـلاته بالنـاس وكما يعلم أنه لو عهد له بالخلافة لنقلـوا ذلك كما نقلـوا ما دونه ؛ بل كما يعلم أنه لم يكن يجتمع هو وأصـحابه على اسـتماع دف أو كف ولا على رقص وزمر ؛ بل كما يعلم أنه لم يكن بعد الصـلوات يجتمع هو وهم على دعـاء ورفع أيد ونحو ذلك إذ لو فعل ذلك لنقلـوه بل كما يعلم أنه لم يصل في السفر الظهر والعصر والعشاء أربعا وأنه لو صـلى في السفر أربعا بعض الأوقات لنقل الناس ذلك كما نقلوا جمعه بين الصـلاتين بعض الأوقـات. بل كما يعلم أنه لم يكن يصـلي المكتوبـات وحـده بل إنما كـان يصـليهن في الجماعة ؛ بل كما يعلم أنه لم يكن هو وأصحابه يحملون التراب في السفر للـتيمم ولا يصـلون كل ليلة على من يمـوت من المسـلمين ولا ينـوون الاعتكاف كلما دخلوا مسجدا للصلاة ؛ بل كما يعلم أنه لم يصل على غائب غير النجاشي ؛ بل كما يعلم أنه لو كـان دائما يقنت

في الفجر أو غيرها بقنوت مسنون يجهر به لنقل النـاس ذلك - كما نقلوا قنوته العـارض الـذي دعا فيه لقـوم وعلى قـوم وكـان نقلهم لـــذلك أوكد - وكما يعلم أنه لما صـــلى بعرفة ومزدلفة قصــرا وجمعا لو أمر أحــدا خلفه أن يتم صــلاته أو أن لا يجمع معه لنقل الناس ذلك كما نقلوا ما هو دون ذلـك. وكما يعلم أنه لم يـأمر الحيض في زمانه المبتـدآت بـالحيض أن يغتسـلن عند انقضـاء يـوم وليلة وأنه لم يـأمر أصـحابه أن يغسـلوا ما يصـيب أبـدانهم وثيـابهم من المـني وأنه لم يـوقت للنـاس لفظا معينا لا في نكـــاح ولا في بيع ولا إجـــارة ولا غــــير ذلك ولما حج حجة الوداع لم يعتمر عقيب الحج وأنه لما أفـاض من مـنى إلى مكة يوم النحر ما طاف وسعى أولا ثم طاف ثانيا إلى غـير ذلك مما يطـــول ذكـــره. ومن تتبع كتب الصـــحيحين ونحوها من الكتب المعتمدة ووقف على أقوال الصحابة والتابعين ومن قفا منهـاجهم من الأئمة المرضيين - قديما وحديثا - علم صـحة ما أوردنـاه في هذا الباب. و (المقصود هنا) أن المدلول إذا كان وجوده مسـتلزما لوجـــود دليله كـــان انتفـــاء دليله دليلا على انتفائه أما إذا أمكن وجـــوده وأمكن أن لا نعلم نحن دليل ثبوته لم يكن عـــدم علمنا بدليل وجوده دليلا على عدمه , فأسماء الله وصـفاته إذا لم يكن عندنا ما يـدلنا عليها لم يكن ذلك مسـتلزما لانتفائها إذ ليس في الشرع ولا في العقل ما يـدل على أنا لا بد أن نعلم كل ما هو ثابت له تعالى من الأسـماء والصـفات بل قد قـال أفضل الخلق وأعلمهم بالله في الحــديث الصـحيح {لا أحصي ثنـاء عليك أنت كما أثنيت على نفسـك} وفي الحـديث الصـحيح حـديث الشـفاعة {فأخر سـاجدا فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحصـيها الآن}. فـــإذا كـــان أفضل الخلق لا يحصي ثنـــاء عليه ولا يعـــرف الآن محامـده الـتي يحمـده بها عند السـجود للشـفاعة ؛ فكيف يكـون غــــيره عارفا بجميع محامد الله والثنــــاء عليه وكل ما له من الأسماء الحسنى فإنه داخل في محامده وفيما يثني عليه به وإذا كان كذلك فمن كان بما له من الأسماء والصفات أعلم وأعـرف كان بالله أعلم وأعرف ؛ بل من كـان بأسـماء النـبي صـلى الله عليه وسلم وصفاته أعلم كان بالنبي صلى الله عليه وسلم أعلم فليس من علم أنه نـبي كمن علم أنه رسـول ولا من علم أنه رسول كمن يعلم أنه خاتم الرسل ولا من علم أنه خاتم الرسل كمن علم أنه ســـــيد ولد آدم ولا من علم ذلك كمن علم ما خصه الله به من الشـفاعة والحـوض والمقـام المحمـود والملة وغـير ذلك من فضـائله صـلى الله عليه وسـلم وليس كل من جهل شيئا من خصائصه يكـون كـافرا بل كثـير من المؤمـنين لم

يسمع بكثير من فضائله وخصائصه فكذلك ليس كل من جهل بعض أسماء الله وصفاته يكون كافرا إذ كثير من المؤمنين لم يسمع كثيرا مما وصفه به رسوله وأخبر به عنه. فهذه الوجوه ونحوها مما تبين تفاضل الإيمان الذي في القلب ؛ وأما تفاضلهم في الأقوال والأعمال الظاهرة فلا تشتبه على أحد والله أعلم.

(فصل) (ص575)

إذا تبين هذا وعلم أن الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة ؛ كما أن القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد وأنه يمتنع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه زالت " الشبه العلمية " في هذه المسألة ولم يبق إلا " نزاع لفظي " في أن موجب الإيمان الباطن هل هو جزء منه داخل في مسماه فيكون لفظ الإيمان دالا عليه بالتضمن والعموم ؟ أو هو لازم للإيمان ومعلول له وثمرة له فتكون دلالة الإيمان عليه بطريق اللزوم ؟ و " حقيقة الأمر " أن اسم الإيمان يستعمل تارة هكذا وتارة هكذا كما قد تقدم ؛ فإذا قرن اسم الإيمان بالإسلام أو العمل كان دالا على الباطن فقط. وإن أفرد اسم الإيمان فقد يتناول الباطن والظاهر وبهذا تأتلف النصوص. فقوله: {الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان}. أفرد لفظ الإيمان فدخل فيه الباطن والظاهر وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل: {الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر} ذكره مع قوله صلى الله عليه وسلم: {الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة , وتصوم رمضان , وتحج البيت} فلما أفرده عن اسم الإسلام ذكر ما يخصه الاسم في ذاك الحديث مجردا عن الاقتران. وفي هذا الحديث مقرون باسم الإسلام وقوله تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} دخل فيه الباطن فلو أتى بالعمل الظاهر دون الباطن لم يكن ممن أتى بالدين الذي هو عند الله الإسلام. وأما إذا قرن الإسلام بالإيمان كما في قوله تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} وقوله: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين} {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} وقوله تعالى: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات} فقد يراد بالإسلام الأعمال الظاهرة كما في حديث أنس الذي في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {الإسلام

علانية والإيمـــــان في القلب}. ومن علم أن دلالة اللفظ تختلف بـالإفراد والاقـتران كما في اسم الفقـير والمسـكين والمعـروف والمنكر والبغي وغـير ذلك من الأسـماء وكما في لغـات سـائر الأمم ؟ عربها وعجمها زاحت عنه الشـبهة في هـذا البـاب والله أعلم. فإن قال قائل ؛ اسم " الإيمان " إنما يتناول الأعمال مجازا قيل: " أولا " ليس هذا بأولى ممن قـال: إنما تخـرج عنه الأعمـال مجـازا بل هـذا أقـوى لأن خـروج العمل عنه إنما هو إذا كـان مقرونا باسم الإسـلام والعمل وأما دخـول العمل فيه فـإذا أفـرد كما في قولـه صـلى الله عليه وسـلم: {الإيمـان بضع وسـبعون شـــــعبة أعلاها قـــــول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمـان} فإنما يـدل مع الاقـتران أولى باسم المجاز مما يـدل عند التجريد والإطلاق. وقيل له " ثانيا " لا نـزاع في أن العمل الظـاهر هو فـرع عن البـاطن ومـوجب له ومقتضـاه ؛ لكن هل هو داخل في مسـمى الاسم وجـزء منه أو هو لازم للمسـمى كالشـرط المفـارق والمـوجب التـابع ؟ ومن المعلـوم أن الأسـماء الشـرعية والدينيـة: كاسم " الصـلاة " و " الزكاة " و " الحج " ونحو ذلك هي باتفاق الفقهـاء اسم لمجمـوع الصلاة الشرعية والحج الشرعي ومن قـال إن الاسم إنما يتنـاول مما يتناوله عند الإطلاق في اللغـة. وإن ما زاده الشـارع إنما هو زيـادة في الحكم وشـرط فيه لا داخل في الاسم كما قـال ذلك القاضي أبو بكر بن الطيب والقاضي أبو يعلى ومن وافقهما على أن الشـرع زاد أحكاما شـرعية جعلها شـروطا في القصد , والأعمال والدعاء ليست داخلة في مسمى الحج والصيام والصلاة فقولــهم مرجـوح عند الفقهـاء وجمـاهير المنسـوبين إلى العلم ؛ ولهـذا كـان الجمهـور من أصـحاب الأئمة الأربعة على خلاف هـذا القول. فإذا قال قائل: إن اسم " الإيمـان " إنما يتنـاول مجـرد ما هو تصديق وأما كونه تصديقا بالله وملائكته وكتبه ورسله , وكون ذلك مستلزما لحب الله ورسوله ونحو ذلك هو شرط في الحكم لا داخل في الاسم إن لم يكن أضـعف من ذلك القـول فليس دونه في الضـعف فكـذلك من قـال: الأعمـال الظـاهرة لـوازم للباطن لا تدخل في الاسم عند الإطلاق يشبه قوله قـول هـؤلاء والشارع إذا قـرن بالإيمـان العمل فكما يقـرن بـالحج ما هو من تمامه كما إذا قـال من حج الـبيت وطـاف وسـعى ووقف بعرفة ورمى الجمار ؛ ومن صلى فقرأ وركع وسجد كما قال من صـام رمضان إيمانا واحتسابا ومعلوم أنه لم يكن صوما شـرعيا إن لم يكن إيمانا واحتسابا. وقـال: {من حج هـذا الـبيت فلم يـرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه} ومعلوم أن الـرفث الـذي

هو الجمـاع يفسد الحج والفسـوق ينقص ثوابه وكما قـال صـلى الله عليه وسلم: {من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا}. فلا يكـون مصـليا إن لم يسـتقبل قبلتنا في الصـلاة وكما قـال صـلى الله عليه وسـلم: {خمس صـلوات كتبهن الله على العبد في اليـــوم والليلة من حافظ عليهن كـــان له عهد عند الله أن يدخله الجنة ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء غفر له} فذكر المحافظ عليها ومعلوم أنه لا يكـون مصـليا لها على الوجه المـأمور إلا بالمحافظة عليهـا. ولكن بين أن الوعيد مشروط بذلك ولهذا لا يلـزم من عـدم المحافظة أن لا يصـليها بعد الـوقت فلا يكـون محافظا عليهـا. إذ المحافظة تسـتلزم فعلها كما قـــال: {حـــافظوا على الصـــلوات والصـــلاة الوسطى} نزلت لما أخرت العصر عام الخندق قـال النبي صـلى الله عليه وسـلم: {ملأ الله أجـوافهم وقبـورهم نـارا كما شـغلونا عن الصـلاة الوسـطى حـتى غـابت الشـمس}. وبهـذا يظهر أن الاحتجاج بذلك على أن تـارك الصـلاة لا يكفر حجة ضـعيفة لكنه يدل على أن تارك المحافظة لا يكفر فإذا صلاها بعد الـوقت لم يكفر ؛ ولهذا جـاءت في " {الأمـراء الـذين يـؤخرون الصـلاة عن وقتها قيل: يا رسول الله ألا نقاتلهم ؟ قال: لا ما صـلوا} وكـذلك لما سئل ابن مسعود عن قولـه تعالى: {أضاعوا الصلاة} قـال هو تأخيرها عن وقتها فقيل له: كنا نظن ذلك تركها فقـال: لو تركوها كانوا كفارا. والمقصود أنه قد يدخل في " الاسم المطلق " أمـــور كثيرة وإن كانت قد تخص بالذكر. وقيل لمن قال: دخول الأعمـال الظاهرة في اسم الإيمان مجاز نزاعك لفظي ؛ فإنك إذا سلمت أن هذه لـوازم الإيمـان الـواجب الـذي في القلب وموجباته كـان عـدم اللازم موجبا لعـدم الملـزوم فيلـزم من عـدم هـذا الظـاهر عدم الباطن فإذا اعـترفت بهـذا كـان الـنزاع لفظيا وإن قلت: ما هو حقيقة قول جهم وأتباعه من أنه يستقر الإيمان التام الواجب في القلب مع إظهار ما هو كفر وترك جميع الواجبـات الظـاهرة قيل لك: فهـذا ينـاقض قولك إن الظـاهر لازم له ومـوجب له بل (قيل: حقيقة قولك إن الظاهر يقارن الباطن تـارة ويفارقه أخـرى فليس بلازم له ولا مـــوجب ومعلـــول له ولكنه دليل إذا وجد دل على وجـود البـاطن وإذ عـدم لم يـدل عدمه على العـدم وهـذا حقيقة قولـك. وهو أيضا خطأ عقلا كما هو خطأ شـرعا وذلك أن هذا ليس بدليل قاطع إذ هذا يظهر من المنافق فإنما يبقى دليلا في بعض الأمور المتعلقة بـدار الـدنيا كدلالة اللفظ على المعـنى وهـذا حقيقة قولك فيقـال لـك: فلا يكـون ما يظهر من الأعمـال ثمـــرة للإيمـــان البـــاطن ولا موجبا له ومن مقتضـــاه وذلك أن

المقتضي لهـذا الظـاهر إن كـان هو نفس الإيمـان البـاطن لم يتوقف وجوده على غيره فإن ما كان معلـولا للشـيء وموجبا له لا يتوقف على غـيره بل يلـزم من وجـوده وجـوده فلو كـان الظاهر موجب الإيمان الباطن لوجب أن لا يتوقف على غيره بل إذا وجد المـوجب وجد المـوجب. وأما إذا وجد معه تـارة وعـدم أخـرى أمكن أن يكـون من مـوجب ذلك الغـير وأمكن أن يكـون موقوفا عليهما جميعا فـإن ذلك الغـير إما مسـتقل بالإيمـان أو مشارك للإيمان وأحسن أحواله أن يكـون الظـاهر موقوفا عليهما معا: على ذلك الغير وعلى الإيمان ؛ بل قد علم أنه يوجد بـدون الإيمان ؛ كما في أعمال المنافق فحينئذ لا يكـون العمل الظـاهر مسـتلزما للإيمـان ولا لازما له بل يوجد معه تـارة ومع نقيضه تارة ولا يكون الإيمان علة له ولا موجبا ولا مقتضيا فيبطل حينئذ أن يكون دليلا عليه لأن الدليل لا بد أن يسـتلزم المـدلول وهـذا هو الحق فـإن مجـرد التكلم بالشـهادتين ليس مسـتلزما للإيمـان النافع عند الله. ولهذا {قال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: لسـعد لما قال: هو مؤمن. قال أو مسلم ؟} وقال تعالى: {يا أيها الـذين آمنـوا إذا جـاءكم المؤمنـات مهـاجرات فـامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفـار} فـدل ذلك على أن مجـرد إظهـار الإسـلام لا يكـون دليلا على الإيمـان في البـاطن إذ لو كـان كـذلك لم تحتج المهـاجرات اللاتي جئن مسـلمات إلى الامتحـان ودل ذلك على أنه بالامتحـان والاختبـار يتبين باطن الإنسان فيعلم أهو مؤمن أم ليس بمؤمن ؛ كما في الحـديث المرفـوع: {إذا رأيتم الرجل يعتـاد المسـجد فاشـهدوا له بالإيمـان فـإن الله يقـول: {إنما يعمر مسـاجد الله من آمن بالله واليـوم الآخر وأقـام الصـلاة وآتى الزكـاة ولم يخش إلا اللـه} الآية}. فإذا قيل: الأعمال الظاهرة تكون من موجب الإيمـان تـارة , ومـوجب غـيره أخـرى ؛ كـالتكلم بالشـهادتين: تـارة يكـون من مـوجب إيمـان القلب وتـارة يكـون تقية كإيمـان المنـافقين قـال تعـالى: {ومن النـاس من يقـول آمنا بالله وبـاليوم الآخر وما هم بمؤمنين}. ونحن إذا قلنا: هي من ثمرة الإيمان إذا كـانت صـادرة عن إيمان القلب لا عن نفاق قيل: فإذا كانت صـادرة عن إيمـان إما أن يكـون نفس الإيمـان موجبا لها وإما أن تقف على أمر آخر فـإذا كـان نفس الإيمـان موجبا لها ثبت أنها لازمة لإيمـان القلب معلولة لا تنفك عنه وهـذا هو المطلـوب ؛ وإن تـوقفت على أمر آخر كان الإيمان جزء السبب جعلها ثمـرة للجـزء الآخر ومعلولة له إذ حقيقة الأمر أنها معلولة لهما وثمـرة لهمـا. فتـبين أن الأعمـال الظـاهرة الصـالحة لا تكـون ثمـرة للإيمـان البـاطن

ومعلولة له إلا إذا كـان موجبا لها ومقتضـيا لها وحينئذ فـالموجب لازم لموجبه , والمعلول لازم لعلته وإذا نقصت الأعمال الظــاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة ؛ بل يلزم من وجود هذا كاملا [وجــود هـذا كـاملا] كما يلزم من نقص هذا نقص هذا ؛ إذ تقـدير إيمـان تـام في القلب بلا ظـاهر من قــول وعمل كتقـدير مـوجب تـام بلا موجبه وعلة تامة بلا معلولها وهذا ممتنع. وبهذا وغيره يتبين فســاد قــول جهم والصـــالحي ومن اتبعهما في " الإيمـــان " كالأشــعري في أشــهر قوليه وأكـثر أصـحابه وطائفة من متـأخري أصـحاب أبي حنيفـة: كالماتريدي ونحوه حيث جعلوه مجرد تصـديق في القلب يتسـاوى فيه العبـــــاد وأنه إما أن يعـــــدم , وإما أن يوجد لا يتبعض وأنه يمكن وجــود الإيمـــان تاما في القلب مع وجــود التكلم بـــالكفر والسب لله ورســـوله طوعا من غـــير إكـــراه وأن ما علم من الأقوال الظاهرة أن صاحبه كافر ؛ فلأن ذلك مستلزم عـدم ذلك التصديق الذي في القلب في الأفعال000(بيـاض في الأصـل) وأن الأعمال الصالحة الظاهرة ليست لازمة للإيمان الباطن الــذي في القلب ؛ بل يوجد إيمان القلب تاما بـدونها فـإن هـذا القـول فيه خطأ من وجــوه: (أحـدها): أنهم أخرجـوا ما في القلـوب من حب لله وخشــيته ونحو ذلك أن يكــون من نفس الإيمـــان. و (ثانيهـــا) جعلـوا ما علم أن صـاحبه كـافر - مثل إبليس وفرعـون واليهـود وأبي طـالب وغـيرهم - أنه إنما كـان كـافرا ؛ لأن ذلك مسـتلزم لعدم تصديقه في البـاطن وهـذا مكـابرة للعقل والحس , وكـذلك جعلـوا من يبغض الرسـول ويحسـده كراهة دينه مسـتلزما لعـدم العلم بأنه صادق ونحو ذلـك. و (ثالثهـا): أنهم جعلــوا ما يوجد من التكلم بـــالكفر من سب الله ورســـوله , والتثليث وغـــير ذلك قد يكـون مجامعا لحقيقة الإيمـان الـذي في القلب , ويكـون صـاحب ذلك مؤمنا عند الله حقيقة سعيدا في الدار الآخـرة , وهـذا يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام. و (رابعها): أنهم جعلــوا من لا يتكلم بالإيمــــان قط مع قدرته على ذلك ولا أطـــــاع الله طاعة ظــــاهرة مع وجـــوب ذلك عليه وقدرته يكـــون مؤمنا بالله تـــام الإيمان سعيدا في الدار الآخرة. وهذه الفضائح تختص بها الجهمية دون المرجئة من الفقهـــاء وغـــيرهم. و (خامســـها): وهو يلـــزمهم ويلزم المرجئة أنهم قالوا: إن العبد قد يكـون مؤمنا تـام الإيمـان إيمانه مثل إيمان الأنبياء والصديقين ولو لم يعمل خـيرا لا صـلاة ولا صلة ولا صدق حديث ولم يدع كبيرة إلا ركبها فيكـون الرجل عنــدهم إذا حــدث كــذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خــان وهو

مصر على دوام الكــذب والخيانة ونقض العهــود لا يســجد لله سجدة , ولا يحسن إلى أحد حسنة , ولا يـؤدي أمانة ولا يـدع ما يقـــدر عليه من كـــذب وظلم وفاحشة إلا فعلها وهو مع ذلك مؤمن تام الإيمان , إيمانه مثل إيمان الأنبياء , وهذا يلزم كل من لم يقل إن الأعمال الظاهرة من لوازم الإيمان الباطن فإذا قال: إنها من لوازمه وأن الإيمان الباطن يسـتلزم عملا صـالحا ظـاهرا كان بعد ذلك , قولـه: إن تلك الأعمال لازمة لمسـمى الإيمـان أو جـزء منه (نزاعا لفظيا كما تقـدم). و (سادسـها): أنه يلـزمهم أن من سـجد للصـليب والأوثـان طوعا وألقى المصـحف في الحش عمدا , وقتل النفس بغـير حق وقتل كل من رآه يصـلي وسـفك دم كل من يـــراه يحج الـــبيت ؛ وفعل ما فعلته القرامطة بالمسـلمين يجـوز أن يكـون مع ذلك مؤمنا وليا لله , إيمانه مثل إيمـان النبـيين والصـديقين ؛ لأن الإيمـان البـاطن إما أن يكـون منافيا لهـذه الأمـور وإما ألا يكـون منافيا ؛ فـإن لم يكن منافيا أمكن وجودها معه فلا يكون وجودها إلا مع عدم الإيمان الباطن. وإن كان منافيا للإيمان الباطن كان ترك هذه من موجب الإيمان ومقتضاه ولازمه فلا يكون مؤمنا في الباطن الإيمـان الـواجب إلا من ترك هذه الأمـور فمن لم يتركها دل ذلك على فسـاد إيمانه البـاطن وإذا كـانت الأعمـال والـتروك الظـاهرة لازمة للإيمـان الباطن كانت من موجبه ومقتضاه وكـان من المعلـوم أنها تقـوى بقوته وتزيد بزيادته وتنقص بنقصانه فإن الشيء المعلـول لا يزيد إلا بزيـادة موجبه ومقتضـيه ولا ينقص إلا بنقصـان ذلك ؛ فـإذا جعل العمل الظاهر موجب الباطن ومقتضاه لزم أن تكون زيادته لزيـادة البـاطن فيكـون دليلا على زيـادة الإيمـان البـاطن ونقصه لنقص البـــاطن فيكـــون نقصه دليلا على نقص البـــاطن وهو المطلوب. وهذه الأمور كلها إذا تدبرها المؤمن بعقله تـبين له أن مـذهب السـلف هو المـذهب الحق ؛ الـذي لا عـدول عنه ؛ وأن من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح المعقول وصـحيح المنقـول كسـائر ما يلـزم الأقـوال المخالفة لأقـوال السـلف والأئمة والله أعلم. وقول جهم ومن وافقه: إن الإيمـان مجـرد العلم والتصـديق وهو بذلك وحده يستحق الثـواب والسـعادة يشـبه قـول من قـال من الفلاسفة المشائين وأتبـاعهم: إن سـعادة الإنسـان في مجـرد أن يعلم الوجود على ما هو عليه ؛ كما أن قول الجهمية وهؤلاء الفلاسـفة في " مسـائل الأسـماء والصـفات " و " مسـائل الجـبر والقــدر " متقاربـان وكـذلك في " مسـائل الإيمـان " وقد بسـطنا الكلام على ذلك وبينا بعض ما فيه من الفســاد في غــير هــذا الموضع , مثل أن العلم هو أحد قوتي النفس فـإن النفس لها "

قوتــان ": قــوة العلم والتصــديق , وقــوة الإرادة والعمل كما أن الحيوان له " قوتان ": قوة الحس , وقـوة الحركة بـالإرادة. وليس صــلاح الإنســان في مجــرد أن يعلم الحق دون ألا يحبه ويريــده ويتبعه كما أنه ليس سعادته في أن يكــون عالما بالله مقــرا بما يســتحقه دون أن يكــون محبا لله عابــدا لله مطيعا لله بل أشد الناس عذابا يــوم القيامة عـالم لم ينفعه الله بعلمه ؛ فـإذا علم الإنســـان الحق وأبغضه وعـــاداه كـــان مســـتحقا من غضب الله وعقابه ما لا يستحقه من ليس كذلك ؛ كما أن من كـان قاصـدا للحق طالبا له - وهو جاهل بـــالمطلوب وطريقه - كـــان فيه من الضلال وكان مستحقا من اللعنة - التي هي البعد عن رحمة الله - ما لا يســـتحقه من ليس مثله ؛ ولهـــذا أمرنا الله أن نقـــول: {اهـدنا الصـراط المسـتقيم} {صـراط الـذين أنعمت عليهم غـير المغضــوب عليهم ولا الضــالين}. و " المغضــوب عليهم " علمــوا الحق فلم يحبـوه ولم يتبعـوه و " الضـالون " قصـدوا الحق لكن بجهل وضــلال به وبطريقه فهــذا بمنزلة العــالم الفــاجر , وهــذا بمنزلة العابد الجاهل وهــذا حــال اليهــود فإنه مغضــوب عليهم , وهذا حال النصارى فإنهم ضالون. كما ثبت عن النــبي صــلى الله عليه وسلم أنه قال: {اليهود مغضوب عليهم , والنصارى ضالون}. و " المتفلسفة " أسـوأ حـالا من اليهـود والنصـارى فـإنهم جمعـوا بين جهل هؤلاء وضلالهم وبين فجـور هـؤلاء وظلمهم فصـار فيهم من الجهل والظلم ما ليس في اليهود ولا النصـارى حيث جعلــوا السعادة في مجرد أن يعلموا الحقائق حتى يصـير الإنسـان عالما معقـــولا مطابقا للعـــالم الموجـــود ثم لم ينـــالوا من معرفة الله وأسـمائه وصـفاته وملائكته وكتبه ورسـله وخلقه وأمـره إلا شـيئا نــزرا قليلا فكـان جهلهم أعظم من علمهم , وضـلالهم أكـبر من هـداهم وكـانوا مـترددين بين الجهل البسـيط والجهل المـركب ؛ فــإن كلامهم في الطبيعــات والرياضــيات لا يفيد كمــال النفس وصلاحها وإنما يحصل ذلك بـالعلم الإلهي وكلامهم فيـه: لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سـهل فـيرتقى ولا سـمين فينتقـل. فـــــإن كلامهم في " واجب الوجـــــود " ما بين حق قليل وباطل فاسد كثـير وكـذلك في " العقــول " و " النفـوس " الـتي تـزعم أتبــاعهم من أهل الملل أنها الملائكة الـتي أخـبرت بها الرسل ؛ وليس الأمر كــذلك بل زعمهم أن هــؤلاء هم الملائكة من جنس زعمهم أن " واجب الوجود " هو الوجـود المطلق بشـرط الإطلاق مع اعـــترافهم بـــأن المطلق بشـــرط الإطلاق لا يكـــون إلا في الأذهان وكـذلك كلامهم في العقـول والنفـوس يعـود عند التحقيق إلى أمـور مقـدرة في الأذهـان لا حقيقة لها في الأعيـان ثم فيه

من الشرك بالله وإثبات رب مبدع لجميع العالم سواه - لكنه معلول له - وإثبات رب مبدع لكل ما تحت فلك القمر هو معلول الرب فوقه , ذلك الرب معلول لرب فوقه ما هو أقبح من كلام النصارى في قولهم: إن المسيح ابن الله بكثير كثير كما بسط في غير هذا الموضع. وليس لمقدميهم كلام في " النبوات " ألبتة ومتأخروهم حائرون فيها منهم من يكذب بها ؛ كما فعل ابن زكريا الرازي وأمثاله مع قولهم بحدوث العالم. أثبتوا القدماء الخمسة وأخذوا من المذاهب ما هو من شرها وأفسدها ؛ ومنهم من يصدق بها مع قوله بقدم العالم كابن سينا وأمثاله لكنهم يجعلون النبي بمنزلة ملك عادل فيجعلون النبوة كلها من جنس ما يحصل لبعض الصالحين من الكشف والتأثير والتخيل فيجعلون خاصة النبي " ثلاثة أشياء ": قوة الحدس الصائب التي يسمونها القوة القدسية وقوة التأثير في العالم , وقوة الحس التي بها يسمع ويبصر المعقولات متخيلة في نفسه فكلام الله عندهم هو ما في نفسه من الأصوات وملائكته هي ما في أنفسهم من الصور والأنوار وهذه الخصال تحصل لغالب أهل الرياضة والصفا ؛ فلهذا كانت النبوة عندهم مكتسبة. وصار كل من سلك سبيلهم كالسهروردي المقتول وابن سبعين المغربي وأمثالهما - يطلب النبوة ويطمع أن يقال له قم فأنذر هذا يقول: لا أموت حتى يقال لي: قم فأنذر وهذا يجاور بمكة ويعمد إلى غار حراء ويطلب أن ينزل عليه فيه الوحي كما نزل على المزمل والمدثر مثله وكل منهما , ومن أمثالهما يسعى بأنواع السيمياء التي هي من السحر ويتوهم أن معجزات الأنبياء كانت من جنس السحر السيميائي. ومن لم يمكنه طلب النبوة وادعاؤها - لعلمه بقول الصادق المصدوق: {لا نبي بعدي} أو غير ذلك - كابن عربي وأمثاله طلب ما هو أعلى من النبوة وأن خاتم الأولياء أعظم من خاتم الأنبياء وأن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة والنبي يأخذ بواسطة الملك , وبني ذلك على أصل متبوعيه الفلاسفة فإن عندهم: ما يتصور في نفس النبي أو الولي هي الملائكة: من الأشكال النورانية الخيالية " فالملائكة " عندهم ما يتخيله في نفسه. و " النبي " عندهم ما يتلقى بواسطة هذا التخيل و " الولي " يتلقى المعارف العقلية بدون هذا التخيل ولا ريب أن من تلقى المعارف بلا تخيل كان أكمل ممن تلقاها بتخيل. فلما اعتقدوا في النبوة ما يعتقده هؤلاء المتفلسفة صاروا يقولون: إن الولاية أعظم من النبوة كما يقول كثير من الفلاسفة: إن الفيلسوف أعظم من النبي ؛ فإن هذا قول الفارابي ومبشر بن فاتك وغيرهما , وهؤلاء يقولون النبوة

أفضل الأمـور عند الجمهـور ؛ لا عند الخاصـة. ويقولـون: خاصة النبي جودة التخييل والتخيل فجاء هؤلاء الـذين أخرجـوا الفلسـفة في قـالب الولاية وعـبروا عن المتفلسف بـالولي وأخـذوا معـاني الفلاسـفة وأبرزوها في صـورة المكاشـفة والمخاطبة وقـالوا: إن الولي أعظم من النبي لأن المعاني المجردة يأخـذها عن الله بلا واسـطة تخيل لشـيء في نفسه , والنـبي يأخـذها بواسـطة ما يتخيل في نفسه من الصـور والأصـوات ولم يكفهم هـذا البهتـان حـتى ادعـوا أن جميع الأنبيـاء والرسل يسـتفيدون العلم بالله من مشـكاة خـاتم هـؤلاء الأوليـاء الـذي هو من أجهل الخلق بالله وأبعـدهم عن دين الله , والعلم بالله هو عنـدهم بأنه " الوجـود المطلق " الساري في الكائنات فوجود كل موجود هو عين وجود واجب الوجـود. وحقيقة هـذا القـول قـول الدهرية الطبيعية الـذين ينكرون أن يكون للعالم مبـدع أبدعه هو واجب الوجـود بنفسه ؛ بل يقولون: العالم نفسه واجب الوجود بنفسه. فحقيقة قول هؤلاء شر من قـول الدهرية الإلهـيين وهو يعـود عند التحقق إلى قـول الدهرية الطبيعـيين وقد حـدثونا: أن ابن عـربي تنـازع هو والشـيخ أبو حفص السـهروردي: هل يمكن وقت تجلي الحق لعبد مخاطبة له أم لا ؟ فقال الشيخ أبو حفص السـهروردي: نعم يمكن ذلـك. فقـال ابن عـربي: لا يمكن ذلك وأظن الكلام كـان في غيبة كل منهما عن صـاحبه فقيل لابن عـربي: إن السـهروردي يقـول كـذا وكذا. فقـال: مسـكين نحن تكلمنا في مشـاهدة الـذات وهو يتكلم في مشـاهدة الصـفات. وكـان كثـير من أهل التصـوف والسـلوك والطـالبين لطريق التحقيق والعرفـان - مع أنهم يظنـون أنهم متـابعون للرسل وأنهم متقـون للبـدع المخالفة له - يقولـون هـذا الكلام ويعظمونه ويعظمـون ابن عـربي لقوله مثل هـذا ولا يعلمون أن هذا الكلام بناه على أصـله الفاسد في الإلحـاد الـذي يجمع بين التعطيل والاتحاد ؛ فإن حقيقة الرب عنده وجود مجرد لا اسم له ولا صفة ولا يمكن أن يرى في الدنيا ولا في الآخـرة ولا له كلام قائم به ولا علم ولا غير ذلك ولكن يرى ظاهرا في المخلوقـات متجليا في المصـنوعات وهو عنـده غـير وجـود الموجـودات وشـبهه , وتـارة بظهـور الكلي في جزئياته كظهـور الجنس في أنواعه والنـوع في الخاصة كما تظهر الحيوانية في كل حيوان والإنسانية في كل إنسان. وهذا بناه على غلط أسلافه " المنطقيين اليونانيين " حيث ظنوا أن الموجـودات العينية يقارنها جواهر عقلية بحسب ما تحمل لها من الكليـات فيظنـون أن في الإنسان المعين إنسـانا عقليا وحيوانا عقليا وناطقا عقليا وحساسا عقليا وجسـما عقليا وذاك هو الماهية الـتي يعـرض لها الوجـود

وتلك الماهية مشتركة بين جميع المعينات وهذا الكلام له وقع عند من لم يفهمه ويتدبره. فإذا فهم حقيقته تبين له أنه بكلام المجانين أشبه منه بكلام العقلاء , وإنما ذلك لمخالفته للحس والعقل وإنما أتى فيه هؤلاء من حيث إنهم تصوروا في أنفسهم معاني " كلية مطلقة " فظنوا أنها موجودة في الخارج. فضلالهم في هذا عكس ضلالهم في أمر الأنبياء شاهدت أمورا خارجة عن أنفسهم , فزعم هؤلاء الملاحدة أن تلك كانت في أنفسهم. وهؤلاء الملاحدة شهدوا في أنفسهم أمورا " كلية مطلقة " فظنوا أنها في الخارج وليست إلا في أنفسهم فجعلوا ما في أنفسهم في الخارج وليس فيه وجعلوا ما أخبرت به الأنبياء في أنفسهم وإنما هو في الخارج فلهذا كانوا مكذبين بالغيب التي أخبرت به الأنبياء ثم جعلوا وجود الرب الخالق للعالمين البائن عن مخلوقاته أجمعين هو من جنس وجود الإنسانية في الأناسي والحيوانية في الحيوان أو ما أشبه ذلك كوجود الوجود في الثبوت - عند من يقول المعدوم شيء - فإنهم أرادوا أن يجعلوه شيئا موجودا في المخلوقات مع مغايرته لها فضربوا له مثلا تارة بالكليات وتارة بالمادة والصورة وتارة بالوجود المغاير للثبوت وإذا مثلوه بالمحسوسات مثلوه بالشعاع في الزجاج أو بالهواء في الصوفة فضربوا لرب العالمين الأمثال ؛ فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ؛ وهم في هذه الأمثال ضالون من وجوه: (أحدها): إنما مثلوا به من المادة مع الصورة والكليات مع الجزئيات والوجود مع الثبوت: كل ذلك يرجع عند التحقيق إلى شيء واحد لا شيئين فجعلوا الواحد اثنين كما جعلوا الاثنين واحدا في مثل صفات الله يجعلون العلم هو العالم , والعلم هو المعلوم والعلم هو القدرة , والعلم هو الإرادة وأنواع هذه الأمور التي إذا تدبرها العاقل تبين له أن هؤلاء من أجهل الناس بالأمور الإلهية , وأعظم الناس قولا للباطل ؛ مع ما في نفوسهم ونفوس أتباعهم من الدعاوى الهائلة الطويلة العريضة كما يدعي إخوانهم القرامطة الباطنية أنهم أئمة معصومون مثل الأنبياء وهم من أجهل الناس وأضلهم وأكفرهم. (الثاني): أنهم على كل تقدير من هذه التقديرات يجعلون وجوده مشروطا بوجود غيره الذي ليس هو مبدعا له ؛ فإن وجود الكليات في الخارج مشروط بالجزئيات , ووجود المادة مشروط بالصورة وكذلك بالعكس , ووجود الأعيان مشروط بثبوتها المستقر في العدم ؛ فيلزمهم على كل تقدير أن يكون واجب الوجود مشروطا بما ليس هو من مبدعاته , وما كان وجوده موقوفا على غيره الذي ليس هو مصنوعا له لم يكن واجب الوجود بنفسه وهذا بين. (الثالث) أن

هذا الكلام يعـود عند التحقيق إلى أن يكـون وجـود الخـالق عين وجود المخلوقات وهم يصرحون بذلك ؛ لكن يدعون المغايرة بين الوجود والثبوت: أو بين الوجود والماهية: وبين الكل والجـزء , وهو المغايرة بين المطلق والمعين ؛ فلهذا كانوا يقولون: بالحلول. تارة يجعلون الخالق حـالا في المخلوقـات , وتـارة محلا لها وإذا حقق الأمر عليهم بعـدم المغـايرة كـان حقيقة قولــهم أن الخـالق هو نفس المخلوقات فلا خالق ولا مخلوق وإنما العالم واجب الوجود بنفســه. (الرابــع): أنهم يقــرون بما يزعمونه من " التوحيد " عن التعدد في صـفاته الواجبة ؛ وأسـمائه ؛ وقيـام الحـوادث به وعن كونه جســـما ؛ أو جــــوهرا ؛ ثم هم عند التحقيق يجعلونه عين الأجســام الكائنة الفاســدة المســتقذرة ويصــفونه بكل نقص كما صـرحوا بـذلك قـالوا: ألا تـرى الحق يظهر بصـفات المحـدثات ؟ وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص ؛ وبصفات الذم , وقـالوا: العلي لذاته هو الـذي يكـون له الكمـال الـذي يسـتغرق به جميع الأمــور الوجودية والنسب العدمية ســواء كــانت محمــودة عرفا وعقلا وشـرعا ؛ أو مذمومة عرفا وعقلا وشـرعا , وليس ذلك إلا لمسـمى الله خاصة فهو متصف عنـدهم بكل صـفة مذمومة كما هو متصف بكل صفة محمـودة وقد بسط الكلام على هـؤلاء في غـير هـذا الموضع فـإن أمـرهم أعظم من أن يبسط هنـا. ولكن (المقصــود التنبيه على تشــابه رؤوس الضــلال) حــتى إذا فهم المؤمن قول أحـدهم أعانه على فهم قـول الآخر ؛ واحـترز منهم , وبين ضلالهم لكثرة ما أوقعـوا في الوجـود من الضـلالات. فـابن عربي بزعمـه: إنما تجلي الـذات عنـده شـهود مطلق ؛ هو وجـود الموجودات ؛ مجـردا مطلقا لا اسم له ولا نعت ومعلـوم أن من تصور هذا لم يمكن أن يحصل له عنه خطـاب ؛ فلهـذا زعم أن عند تجلي الـذات لا يحصل خطـاب. وأما أبو حفص السـهروردي فكان أعلم بالسـنة وأتبع للسـنة من هـذا وخـيرا منه ؛ وقد رأى أن ما جـاءت به الأحـاديث من أن الله يتجلى لعبـاده ويخـاطبهم حين تجليه لهم فآمن بذلك ؛ لكن ابن عربي في فلسفته أشـهر من هذا في سنته. ولهذا كـان أتباعهما يعظمـون ابن عـربي عليه مع إقــرارهم بــأن الســهروردي أتبع للســنة كما حــدثني الشــيخ الملقب بحسـام الـدين القـادم السـالك طريق ابن حموية الـذي يلقبه أصـحابه " سـلطان الأقطـاب " ؛ وكـان عنـده من التعظيم لابن عـــربي وابن حموية ؛ والغلو فيهما أمر عظيم فـــبينت له كثـيرا مما يشـتمل عليه كلامهما من الفسـاد والإلحـاد والأحـاديث المكذوبة على النــبي صــلى الله عليه وســلم وجــرى في ذلك فصـــول ؛ لما كـــان عنـــده من التعظيم مع عـــدم فهم حقيقة

أقوالهما وما تضمنته من الضلالات. وكان ممن حدثني عن شـيخه الطاووسي الـذي كـان بهمـدان عن سـعد الـدين بن حموية أنه قـال: محـيي الـدين ابن عـربي بحر لا تكـدره الـدلاء ؛ لكن نـور المتابعة النبوية على وجه الشيخ شهاب الدين السـهروردي شـيء آخر فقلت له: هذا كما يقال: كان هؤلاء أوتوا [من] ملك الكفار ملكا عظيما. لكن نور الإسلام الذي على شهاب غـازي صـاحب " ميافا رقين " شيء آخر. فإنهم كانوا يعظمون ابن عــربي ؛ وذلك لأن الشــيخ شــهاب الــدين لم يكن متمكنا من معرفة الســنة ومتابعتها وتحقيق ما جـاءت به الرسل ؛ كتمكن ابن عــربي في طريقه الـتي سـلكها وجمع فيها بين الفلسـفة والتصـوف. وهـؤلاء إنما يقطع دابـرهم المباينة بين الخـالق والمخلـوق وإثبـات تعينه منفصلا عن المخلوق ترفع إليه الأيدي بالـدعاء وإليه كـان معـراج خاتم الأنبياء وقد ذكر السهروردي في عقيدته المشهورة قولـه: " بلا إشارة ولا تعيين " وهذه هي التي اسـتطال بها عليه هـؤلاء ؛ فإنه مـتى نفيت الإشـارة والتعـيين لم يبق إلا العـدم المحض ؛ والتعطيل أو الإلحـاد والوحـدة والحلـول. وابن سـبعين وأمثاله من هؤلاء الملاحدة يقولون هكذا: لا إشارة ولا تعيين بل عين ما ترى ذات لا ترى وذات لا تـرى عين ما تـرى ويقولـون في أذكـارهم: ليس إلا الله بـدل قـول المسـلمين: لا إله إلا الله لأن معتقـدهم أنه وجود كل موجود ؛ فلا موجود إلا هو ؛ والمسـلمون يعلمـون أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ؛ وأنه ليس هو المخلوقات ولا جـزءا منها ؛ ولا صـفة لها ؛ بل هو بـائن عنها ويقولـون إنه هو الإله الذي يستحق العبادة دون ما سـواه من الموجـودات فلا إله إلا هو ؛ كما قال تعـالى: {فلا تـدع مع الله إلها آخر فتكـون من المعـذبين} وكما قـال تعـالى: {قل أفغـير الله تـأمروني أعبد أيها الجاهلون} وقـال: {قل أغـير الله أتخذ وليا فـاطر السـماوات والأرض}. وهؤلاء الملاحدة ما عندهم غـير يمكن أن يعبد ولا غـير يمكن أن يتخذ وليا ولا إلها ؛ بل هو العابد والمعبود ؛ والمصـلي والمصـلى له ؛ كما قـال شـاعرهم ابن الفـارض في قصـيدته " نظم السلوك ": لها صلواتي بالمقـام أقيمها وأشـهد فيها أنها لي صلت كلانا مصل واحد ساجد إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة إلى قولـه: وما كان لي صلى سواي ولم تكن صلاتي لغـيري في أدا كل ركعة إلي رسـولا كنت مـني مرسلا وذاتي بآيـاتي علي استدلت وقولـه: ومـازلت إياها وإيـاي لم تـزل ولا فـرق بل ذاتي لــذاتي أحبت فهــؤلاء " الجهمية " من المتكلمة والصــوفية في قولـهم: إن الإيمان هو مجرد المعرفة والتصديق يقولون: المعروف هو الموجـود الموصـوف بالسـلب والنفي كقولــهم: لا هو داخل

العالم ؛ ولا خارجه ؛ ولا مباين العالم ولا محايث ثم يعودون فيجعلونه حالا في المخلوقات أو محلا لها أو هو عينها ؛ أو يعطلونه بالكلية ؛ فهم في هذا نظير المتفلسفة المشائين: الذين يجعلون كمال الإنسان بالعلم ؛ و " العلم الأعلى " - عندهم - و " الفلسفة الأولى " - عندهم - النظر في الوجود ولواحقه ويجعلون واجب الوجود وجودا مطلقا بشرط الإطلاق لكن أولئك يغيرون العبارات ويعبرون بالعبارات الإسلامية القرآنية عن الإلحادات الفلسفية واليونانية وهذا كله قد قرر ؛ وبسط القول فيه في غير هذا الموضع.

فصل (ص597)

أول ما في الحديث سؤاله عن " الإسلام ": فأجابه بأن {الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت} وهذه الخمس هي المذكورة في حديث ابن عمر المتفق عليه {بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا}. وهذا قاله النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فرض الله الحج فلهذا ذكر الخمس: وأكثر الأحاديث لا يوجد فيها ذكر الحج في حديث وفد عبد القيس {آمركم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس}. وحديث وفد عبد القيس من أشهر الأحاديث وأصحها. وفي بعض طرق البخاري لم يذكر الصيام لكن هو مذكور في كثير من طرقه وفي مسلم وهو أيضا مذكور في حديث أبي سعيد الذي ذكر فيه قصة وفد عبد القيس رواه مسلم في صحيحه عنه واتفقا على حديث ابن عباس وفيه أنه أمرهم بإيتاء الخمس من المغنم ؛ والخمس إنما فرض في غزوة بدر , وشهر رمضان فرض قبل ذلك. ووفد عبد القيس من خيار الوفد الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وقدومهم على النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل فرض الحج وقد قيل قدموا سنة الوفود: سنة تسع والصواب أنهم قدموا قبل ذلك فإنهم قالوا إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر - يعنون أهل نجد - وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام وسنة تسع كانت العرب قد ذلت وتركت الحرب وكانوا بين مسلم أو معاهد خائف لما فتح الله مكة ثم هزموا هوازن يوم حنين وإنما كانوا ينتظرون بإسلامهم فتح مكة وقد بعث

النبي صـلى الله عليه وسـلم أبا بكر رضي الله عنه أمـيرا على الحج ســنة تسع وأردفه بعلي بن أبي طــالب رضي الله عنه ؛ لتنفيذ العهود التي كانت بين النـبي صـلى الله عليه وسـلم وبين العرب إلا أنه أجلهم أربعة أشـهر من حين حجة أبي بكر وكـانت في ذي القعـدة. وقد قـال تعـالى: {فـإذا انسـلخ الأشـهر الحـرم فاقتلوا المشركين} الآية وهذه الأربعة التي أجلوها الأربعة الحـرم. ولهذا غـزا النـبي صـلى الله عليه وسـلم النصـارى بـأرض الـروم عـام تبـوك سـنة تسع قبل إرسـال أبي بكر أمـيرا على الموسم وإنما أمكنه غزو النصـارى لما اطمـأن من جهة مشـركي العـرب وعلم أنه لا خــوف على الإســلام منهم ؛ ولهــذا لم يــأذن لأحد ممن يصـلح للقتـال في التخلف فلم يتخلف إلا منـافق: أو الثلاثة الــذين تيب عليهم أو معــذور ولهــذا لما {اســتخلف عليا على المدينة عام تبـوك طعن المنـافقون فيه لضـعف هـذا الاسـتخلاف وقــــالوا: إنما خلفه لأنه يبغضـــه. فاتبعه علي وهو يبكي فقــــال: أتخلفني مع النساء والصبيان ؟ فقـال: أما ترضى أن تكـون مـني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعـدي}. وكـان قبل ذلك يستخلف على المدينة من يستخلفه وفيها رجـال من أهل القتـال وذلك لأنه لم يكن حينئذ بأرض العرب لا بمكة ولا بنجد ونحوهما من يقاتل أهل دار الإسلام - مكة والمدينة وغيرهما - ولا يخيفهم: ثم لما رجع من تبـــــــوك أقر أبا بكر على الموسم يقيم الحج والصــلاة ويــأمر ألا يحج بعد العــام مشـرك ولا يطـوف بــالبيت عريـان وأتبعه بعلي لأجل نقض العهـود ؛ إذ كـانت عـادة العـرب أن لا يقبلوا إلا من المطاع الكبـير أو من رجل من أهل بيتـه. و (المقصود): أن هذا يبين أن قدوم وفد عبد القيس كان قبل ذلك وأما " حديث ضمام " فـرواه مسـلم في صـحيحه عن {أنس بن مالـك: نهينا أن نسـأل رسـول الله عن شــيء فكـان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل يسـأله ونحن نسـمع فجـاء رجل من أهل البادية فقــال: يا محمد أتانا رســولك فــزعم أنك تزعم أن الله أرسلك قال: صدق قال: فمن خلق السماء ؟ قـال: الله قـال: فمن خلق الأرض ؟ قـال: الله قـال: فمن نصب هـذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال: الله قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب الجبـال آلله أرسـلك قـال: نعم قـال وزعم رســولك أن علينا خمس صــلوات في يومنا وليلتنا قــال: صــدق قـال: فبالـذي أرسـلك آلله أمـرك بهـذا ؟ قـال: نعم قـال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا قال: صدق قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا حج الـبيت من استطاع إليه سبيلا قـال: صـدق ثم ولى الرجل وقـال: والـذي

بعثك بــالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن فقــال: رســول الله صــلى الله عليه وســلم لئن صــدق ليــدخلن الجنــة}. {وعن أنس قــال: بينما نحن جلــوس مع النــبي صــلى الله عليه وســلم في المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ؛ ثم قال لهم: أيكم محمد ؟ - والنبي صلى الله عليه وسلم متكئ بين ظهــرانيهم - فقلنــا: هــذا الرجل الأبيض المتكئ ؟ فقــال له الرجل: ابن عبد المطلب ؟ فقال له: النبي صلى الله عليه وسلم قد أجبتك فقال الرجل: للنبي صلى الله عليه وسلم إنني ســائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك ؛ فقال: سل عما بدا لك ؟ فقال: أسألك بربك ورب من قبلك ؟ آلله أرســلك إلى الناس كلهم ؟ فقــال: اللهم نعم وذكر أنه ســأله عن الصــلاة والزكاة ؛ ولم يــذكر الصــيام والحج فقــال: الرجل آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قــومي ؛ وأنا ضــمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر}. هذان الطريقان في الصحيحين لكن البخــاري لم يذكر في الأول الحج ؛ بل ذكر الصــيام ؛ والســياق الأول أتم ؛ والناس يجعلون الحديثين حديثا واحدا. ويشــبه - والله أعلم - أن يكــون البخــاري رأى أن ذكر الحج فيه وهما لأن ســعد بن أبي بكر ؛ هم من هــوازن وهم أصــهار رســول الله صــلى الله عليه وســلم وهــوازن كــانت معهم وقعة حــنين بعد فتح مكة فأســلموا كلهم بعد الوقعة ودفع إليهم النبي صلى الله عليه وسلم النســاء والصبيان بعد أن قســمها على المعســكر واســتطاب أنفســهم في ذلك فلا تكــون هــذه الزيــارة إلا قبل فتح مكة , والحج لم يكن فــرض إذ ذاك. وحــديث طلحة بن عبيد الله ليس فيه إلا الصــلاة والزكاة والصيام وقد قيل: إنه حــديث ضــمام وهو في الصــحيحين عن طلحة بن عبيد الله قــال: {جــاء رجل إلى النــبي صــلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يســأل عن الإســلام فقــال رســول الله صــلى الله عليه وســلم خمس صلوات في اليوم والليلة قال: هل علي غير ذلك ؟ قــال: لا إلا أن تطوع. قال: وذكر له رسول الله صلى الله عليه وســلم الزكــاة قــال: هل علي غيرها قــال: لا إلا أن تطــوع قــال فــأدبر الرجل وهو يقــول: والله لا أزيد على هــذا ولا أنقص منه فقــال رســول الله صــلى الله عليه وســلم: أفلح إن صــدق} وليس في شيء من طرقه ذكر الحج بل فيه ذكر الصلاة والزكــاة والصــيام كما في حـــديث وفد عبد القيس. وفي الصـــحيحين أيضا " {عن أبي هريـــرة أن أعرابيا جـــاء إلى رســـول الله صـــلى الله عليه وســلم فقــال: يا رســول الله دلــني على عمل إذا عملته دخلت

الجنة فقال تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصـلاة المكتوبة , وتؤدي الزكاة المفروضة , وتصوم رمضان قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئا أبـدا ولا أنقص منه فلما ولى قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: من سـره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هـذا} وهـذا يحتمل أن يكـون ضماما وقد جـاء في بعض الأحاديث ذكر الصلاة والزكاة فقط كما في الصـحيحين {عن أبي أيـوب الأنصـاري أن أعرابيا عـرض لرسـول الله صـلى الله عليه وسلم وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قـال: يا رسـول الله أو يا محمـد. أخـبرني بما يقربـني من الجنة ويباعدني من النار قال: فكف رسول الله صلى الله عليه وسـلم ثم نظر في أصـحابه ثم قـال: لقد وفق أو لقد هـدي ثم قـال: كيف قلت ؟ قـال: فأعـاد فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: تعبد الله لا تشـرك به شـيئا وتقيم الصلاة وتـؤدي الزكـاة وتصل الرحم فلما أدبر قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم: إن تمسك بما أمر به دخل الجنة} هذه الألفـاظ في مسـلم. وقد جـاء ذكر الصـلاة والصـيام في حـديث النعمـان بن قوقل رواه مسلم {عن جابر بن عبد الله قال: سأل رجل النـبي صـلى الله عليه وسلم قـال: أرأيت إذا صـليت الصـلوات المكتوبـات وصـمت رمضان وأحللت الحلال وحرمت الحـرام ولم أزد على ذلك شـيئا أدخل الجنة ؟ قال: نعم قال: والله لا أزيد على ذلك شيئا}. وفي لفظ " أتى النـبي صـلى الله عليه وسـلم النعمـان بن قوقـل. وحـديث النعمـان هـذا قـديم ؛ فـإن النعمـان بن قوقل قتل قبل فتح مكة قتله بعض بـني سـعد بن العـاص كما ثبت ذلك في الصحيح فهذه الأحاديث خـرجت جوابا لسـؤال سـائلين. أما حـديث ابن عمر فإنه مبتدأ وأحاديث الدعوة والقتال فيها الصلاة والزكاة كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم {أمرت أن أقاتل الناس حـتى يشـهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمـدا رسـول الله ويقيمـوا الصـلاة ويؤتـوا الزكاة فإذا فعلـوا ذلك عصـموا مـني دمـاءهم وأمـوالهم إلا بحق الإسـلام وحسـابهم على اللـه}. وقد أخرجـاه في الصـحيحين من حديث أبي هريرة رواه مسـلم عن جـابر {قـال: أمـرت أن أقاتل الناس حتى يشـهدوا أن لا إله إلا الله فـإذا قالوها عصـموا مـني دمـاءهم وأمـوالهم إلا بحقهـا}. فقـال أبو بكـر: والله لأقـاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فـإن الزكـاة حق المـال. فكـان من فقه أبي بكر أنه فهم من ذلك الحـديث المختصر أن القتـال على الزكـاة قتـال على حق المـال وقد بين النـبي صـلى الله عليه وسـلم مـراده بـذلك في اللفظ المبسـوط الـذي رواه ابن عمـر.

والقــرآن صــريح في موافقة حــديث ابن عمر كما قــال تعــالى: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكــاة فخلــوا ســبيلهم}. وحــديث معــاذ لما بعثه إلى اليمن لم يــذكر فيه النــبي صــلى الله عليه وسلم إلا الصلاة والزكاة. فلما كان في بعض الأحاديث ذكر بعض الأركــان دون بعض أشــكل ذلك على بعض النــاس. فأجــاب بعض الناس بــأن ســبب هــذا أن الــرواة اختصر بعضــهم الحــديث الــذي رواه ؛ وليس الأمر كــذلك ؛ فــإن هــذا طعن في الــرواة ونســبة لهم إلى الكذب إذ هذا الذي ذكــره إنما يقع في الحــديث الواحد مثل حــديث وفد عبد القيس حيث ذكر بعضــهم الصــيام وبعضــهم لم يذكره , وحديث ضمام حيث ذكر بعضهم الخمس وبعضــهم لم يذكره , وحديث النعمان بن قوقل حيث ذكر بعضــهم فيه الصــيام , وبعضهم لم يــذكره فبهــذا يعلم أن أحد الــراويين اختصر البعض أو غلط في الزيادة. فأما الحــديثان المنفصــلان فليس الأمر فيهما كذلك لا سيما والأحاديث قد تواترت بكــون الأجوبة كــانت مختلفة وفيهما ما بين قطعا أن النبي صــلى الله عليه وســلم تكلم بهــذا تــارة وبهــذا تــارة والقــرآن يصــدق ذلك فــإن الله علق الأخــوة الإيمانية في بعض الآيــات بالصــلاة والزكــاة فقط كما في قولــه تعــالى: {فــإن تــابوا وأقــاموا الصــلاة وآتــوا الزكــاة فــإخوانكم في الــدين} كما أنه علق تــرك القتــال على ذلك في قولــه تعــالى: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} وقد تقــدم حديث ابن عمر الذي في الصحيحين موافقا لهــذه الآية و " أيضا " فإن في حديث وفد عبد القيس ذكر خمس المغنم لأنهم كــانوا طائفة ممتنعة يقاتلون ومثل هذا لا يذكر جواب سؤال ســائل بما يجب عليه في حق نفسه ولكن عن هــذا " جوابــان ": (أحــدهما): أن النــبي صــلى الله عليه وســلم أجــاب بحسب نــزول الفــرائض وأول ما فرض الله الشــهادتين ثم الصــلاة فإنه أمر بالصــلاة في أول أوقات الوحي ؛ بل قد ثبت {في الصحيح أن أول ما أنــزل عليه: {اقرأ باسم ربك الــذي خلــق} {خلق الإنســان من علــق} - إلى قولــه - {علم الإنســان ما لم يعلم} ثم أنــزل عليه بعد ذلك {يا أيها المــدثر} {قم فأنــذر}} فهــذا الخطــاب إرســال له إلى النــاس والإرســال بعد الإنبــاء ؛ فــإن الخطــاب الأول ليس فيه إرسال وآخر سورة اقــرأ {واســجد واقــترب}. فــأول الســورة أمر بالقراءة وآخرها أمر بالسجود والصلاة مؤلفة من أقــوال وأعمــال فأفضل أقوالها القــراءة وأفضل أعمالها الســجود والقــراءة أول أقوالها المقصودة وما بعده تبع لــه. وقد روي أن الصــلاة أول ما فرضت كــانت ركعــتين بالغــداة وركعــتين بالعشي ثم فرضت الخمس ليلة المعراج وكانت ركعتين ركعتين ؛ فلما هــاجر أقــرت

صلاة السفر ؛ وزيد في صلاة الحضر وكانت الصلاة تكمل شيئا بعد شيء فكانوا أولا يتكلمون في الصلاة ولم يكن فيها تشهد ثم أمروا بالتشهد ؛ وحرم عليهم الكلام ؛ وكذلك لم يكن بمكة لهم أذان. وإنما شرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة ؛ وكذلك صلاة الجمعة والعيد ؛ والكسوف ؛ والاستسقاء وقيام رمضان وغير ذلك. إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة. وأمروا بالزكاة ؛ والإحسان في مكة أيضا ؛ ولكن فرائض الزكاة ونصبها إنما شرعت بالمدينة. وأما " صوم شهر رمضان " فهو إنما فرض في السنة الثانية من الهجرة وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم تسع رمضانات. وأما " الحج " فقد تنازع الناس في وجوبه ؛ فقالت طائفة فرض سنة ست من الهجرة عام الحديبية باتفاق الناس قالوا: وهذه الآية تدل على وجوب الحج ووجوب العمرة أيضا لأن الأمر بالإتمام يتضمن الأمر بابتداء الفعل وإتمامه. وقال الأكثرون: إنما وجب الحج متأخرا قيل سنة تسع ؛ وقيل سنة عشر وهذا هو الصحيح ؛ فإن آية الإيجاب إنما هي قوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت} وهذه الآية في آل عمران في سياق مخاطبته لأهل الكتاب , وصدر آل عمران وما فيها من مخاطبة أهل الكتاب نزل لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران النصارى وناظروه في أمر المسيح ؛ وهم أول من أدى الجزية من أهل الكتاب وكان ذلك بعد إنزال سورة براءة التي شرع فيها الجزية وأمر فيها بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وغزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك التي غزا فيها النصارى لما أمر الله بذلك في قوله: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} ولهذا لم يذكر وجوب الحج في عامة الأحاديث وإنما جاء في الأحاديث المتأخرة. وقد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس وكان قدومهم قبل فتح مكة على الصحيح كما قد بيناه وقالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر يعنون بذلك أهل نجد: من تميم وأسد وغطفان لأنهم بين البحرين وبين المدينة وعبد القيس هم من ربيعة ليسوا من مضر ولما فتحت مكة زال هذا الخوف ولما قدم عليه وفد عبد القيس أمرهم بالصلاة والزكاة ؛ وصيام رمضان ؛ وخمس المغنم ؛ ولم يأمرهم بالحج وحديث ضمام قد تقدم أن البخاري لم يذكر فيه الحج كما لم يذكره في حديث طلحة وأبي هريرة وغيرهما مع قولهم: إن هذه الأحاديث هي من قصة ضمام وهذا ممكن ؛ مع

أن تاريخ قدوم ضمام هذا ليس متيقنا. وأما قولـه: {وأتمـوا الحج والعمـرة للـه} فليس في هـذه الآية إلا الأمر بإتمـام ذلك وذلك يـوجب إتمـام ذلك على من دخل فيه فـنزل الأمر بـذلك لما أحرموا بـالعمرة عـام الحديبية ثم أحصـروا فـأمروا بالإتمـام وبين لهم حكم الإحصـار ولم يكن حينئذ قد وجب عليهم لا عمـرة ولا حج. (الجـواب الثـاني): أنه كـان يـذكر في كل مقـام ما يناسـبه فيـذكر تـارة الفـرائض الظـاهرة الـتي تقاتل على تركها الطائفة الممتنعة كالصلاة والزكاة ويذكر تارة ما يجب على السـائل فمن أجابه بالصـلاة والصـيام لم يكن عليه زكـاة يؤديها ومن أجابه بالصلاة والزكاة والصيام: فإما أن يكون قبل فرض الحج وهذا هو الـواجب في مثل حـديث عبد القيس ونحـوه وإما أن يكـون السائل ممن لا حج عليه. وأما الصـلاة والزكـاة فلهما شـأن ليس لسائر الفرائض ؛ ولهـذا ذكر الله تعـالى في كتابه القتـال عليهما ؛ لأنهما عبادتان ؛ بخلاف الصوم فإنه أمر بـاطن وهو مما ائتمن عليه النـاس فهو من جنس الوضـوء والاغتسـال من الجنابة ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد ؛ فإن الإنسان يمكنه ألا ينوي الصوم وأن يأكل سـرا كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته وأما الصـلاة والزكاة فأمر ظاهر لا يمكن الإنسان بين المؤمـنين أن يمتنع من ذلـك. وهو صـلى الله عليه وسـلم يـذكر في الإسـلام الأعمـال الظـاهرة الـتي يقاتل عليها النـاس ويصـيرون مسـلمين بفعلها ؛ فلهـذا علق ذلك بالصـلاة والزكـاة دون الصـيام وإن كـان الصـوم واجبا كما في آيتي بـراءة فـإن بـراءة نـزلت بعد فـرض الصـيام باتفـاق النـاس. وكـذلك {لما بعث معـاذ بن جبل إلى اليمن قـال لـه: إنك تـأتي قوما أهل كتـاب ؛ فليكن أول ما تـدعوهم إليـه: شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صـلوات في اليـوم والليلة فإن هم أطاعوك لذلك ؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صـدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ؛ فـإن هم أطـاعوك لـذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعـوة المظلـوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب} أخرجاه في الصحيحين. ومعـاذ أرسـله إلى اليمن في آخر الأمر بعد فـرض الصـيام ؛ بل بعد فتح مكة بل بعد تبـوك وبعد فرض الحج والجزية فإن النبي صلى الله عليه وسلم مـات ومعاذ بـاليمن وإنما قـدم المدينة بعد موته ؛ ولم يـذكر في هـذا الحـديث الصـيام لأنه تبع وهو بـاطن ولا ذكر الحج ؛ لأن وجوبه خـاص ليس بعـام وهو لا يجب في العمر إلا مـرة. ولهـذا تنـازع العلماء في تكفير من يـترك شـيئا من هـذه " الفـرائض الأربع " بعد الإقـرار بوجوبها ؛ فأما " الشـهادتان " إذا لم يتكلم بهما مع

القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين وهو كافر باطنا وظاهرا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها وذهبت طائفة من المرجئة وهم جهمية المرجئة: كجهم والصالحي وأتباعهما إلى أنه إذا كان مصدقا بقلبه كان كافرا في الظاهر دون الباطن وقد تقدم التنبيه على أصل هذا القول وهو قول مبتدع في الإسلام لم يقله أحد من الأئمة وقد تقدم أن الإيمان الباطن يستلزم الإقرار الظاهر ؛ بل وغيره وأن وجود الإيمان الباطن تصديقا وحبا وانقيادا بدون الإقرار الظاهر ممتنع. وأما " الفرائض الأربع " فإذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة فهو كافر وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها كالفواحش والظلم والكذب والخمر ونحو ذلك وأما من لم تقم عليه الحجة مثل أن يكون حديث عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه فيها شرائع الإسلام ونحو ذلك أو غلط فظن أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستثنون من تحريم الخمر كما غلط في ذلك الذين استتابهم عمر. وأمثال ذلك فإنهم يستتابون وتقام الحجة عليهم فإن أصروا كفروا حينئذ ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك ؛ كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة بن مظعون. وأصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل. وأما مع الإقرار بالوجوب إذا ترك شيئا من هذه الأركان الأربعة ففي التكفير أقوال للعلماء هي روايات عن أحمد: (أحدها): أنه يكفر بترك واحد من الأربعة حتى الحج وإن كان في جواز تأخيره نزاع بين العلماء فمتى عزم على تركه بالكلية كفر وهذا قول طائفة من السلف وهي إحدى الروايات عن أحمد اختارها أبو بكر و (الثاني): أنه لا يكفر بترك شيء من ذلك مع الإقرار بالوجوب وهذا هو المشهور عند كثير من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وهو إحدى الروايات عن أحمد اختارها ابن بطة وغيره. و (الثالث) لا يكفر إلا بترك الصلاة وهي الرواية الثالثة عن أحمد وقول كثير من السلف وطائفة من أصحاب مالك والشافعي وطائفة من أصحاب أحمد. و (الرابع): يكفر بتركها وترك الزكاة فقط. و (الخامس): بتركها وترك الزكاة إذا قاتل الإمام عليها دون ترك الصيام والحج. وهذه المسألة لها طرفان. (أحدهما) في إثبات الكفر الظاهر. و (الثاني) في إثبات الكفر الباطن. فأما " الطرف الثاني " فهو مبني على مسألة كون الإيمان قولا وعملا كما تقدم ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولا يصوم من رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج إلى بيته فهذا ممتنع ولا يصدر هذا

إلا مع نفاق في القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح ؛ ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار كقوله: {يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون} {خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون}. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما في الحديث الطويل حديث التجلي {أنه إذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة مثل الطبق لا يستطيع السجود} فإذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط وثبت أيضا في الصحيح {أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء إلا موضع السجود فإن الله حرم على النار أن تأكله} فعلم أن من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله وكذلك ثبت في الصحيح {أن النبي صلى الله عليه وسلم يعرف أمته يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء} فدل ذلك على أن من لم يكن غرا محجلا لم يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم فلا يكون من أمته. وقوله تعالى: {كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون} {ويل يومئذ للمكذبين} {وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون} {ويل يومئذ للمكذبين} وقوله تعالى: {فما لهم لا يؤمنون} {وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون} {بل الذين كفروا يكذبون} {والله أعلم بما يوعون}. وكذلك قوله تعالى: {فلا صدق ولا صلى} {ولكن كذب وتولى}. وكذلك قوله تعالى: {ما سلككم في سقر} {قالوا لم نك من المصلين} {ولم نك نطعم المسكين} {وكنا نخوض مع الخائضين} {وكنا نكذب بيوم الدين} {حتى أتانا اليقين} فوصفه بترك الصلاة كما وصفه بترك التصديق ووصفه بالتكذيب والتولي و " المتولي " هو العاصي الممتنع من الطاعة. كما قال تعالى: {ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما}. وكذلك وصف أهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين وكذلك قرن التكذيب بالتولي في قوله: {أرأيت الذي ينهى} {عبدا إذا صلى} {أرأيت إن كان على الهدى} {أو أمر بالتقوى} {أرأيت إن كذب وتولى} {ألم يعلم بأن الله يرى} {كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية} {ناصية كاذبة خاطئة}. و " أيضا " في القرآن علق الأخوة في الدين على نفس إقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما علق ذلك على التوبة من الكفر فإذا انتفى ذلك انتفت الأخوة و " أيضا " فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " {العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر}. وفي المسند {من ترك الصلاة متعمدا فقد

برئت منه الذمة}. و " أيضا " فإن شعار المسلمين الصلاة ولهـذا يعـبر عنهم بها فيقـال: اختلف أهل الصـلاة واختلف أهل القبلة والمصـنفون لمقـالات المسـلمين يقولـون: " مقـالات الإسـلاميين واختلاف المصلين " وفي الصحيح {من صـلى صـلاتنا ؛ واسـتقبل قبلتنا ؛ وأكل ذبيحتنا ؛ فـذلك المسـلم له ما لنا ؛ وعليه ما علينا} وأمثال هذه النصوص كثيرة في الكتاب والسنة. وأما الـذين لم يكفـروا بـترك الصـلاة ونحوها ؛ فليست لهم حجة إلا وهي متناولة للجاحد كتناولها للتارك فما كان جـوابهم عن الجاحد كـان جوابا لهم عن التـارك ؛ مع أن النصـوص علقت الكفر بـالتولي كما تقـدم ؛ وهـذا مثل اسـتدلالهم بالعمومـات الـتي يحتج بها المرجئة كقولـه {من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسـول الله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منـه... أدخله الله الجنـة} ونحو ذلك من النصـوص. وأجـود ما اعتمدوا عليه قولـه صلى الله عليه وسلم {خمس صلوات كتبهن الله على العباد في اليوم والليلة. فمن حافظ عليهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد إن شاء عذبه. وإن شاء أدخله الجنـة}. قـالوا: فقد جعل غير المحافظ تحت المشيئة. والكـافر لا يكـون تحت المشـيئة ولا دلالة في هـذا ؛ فـإن الوعد بالمحافظة عليها والمحافظة فعلها في أوقاتها كما أمر كما قـال تعـالى: {حـافظوا على الصـلوات والصلاة الوسـطى} وعـدم المحافظة يكـون مع فعلها بعد الـوقت كما أخر النبي صلى الله عليه وسـلم صـلاة العصر يـوم الخنـدق فأنزل الله آية الأمر بالمحافظة عليها وعلى غيرها من الصلوات. وقد قال تعالى: {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصـلاة واتبعـوا الشـهوات فسـوف يلقـون غيـا} فقيل لابن مسـعود وغـيره: ما إضـاعتها ؟ فقـال: تأخيرها عن وقتها فقـالوا: ما كنا نظن ذلك إلا تركها فقـال: لو تركوها لكـانوا كفـارا. وكـذلك قولـه: {فويل للمصلين} {الذين هم عن صلاتهم ساهون} ذمهم مع أنهم يصلون ؛ لأنهم سـهوا عن حقوقها الواجبة من فعلها في الـوقت وإتمـام أفعالها المفروضة كما ثبت في صحيح مسـلم {عن النـبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال: تلك صلاة المنـافق تلك صـلاة المنـافق تلك صـلاة المنـافق يـرقب الشـمس حـتى إذا كـانت بين قـرني شـيطان قـام فنقر أربعا لا يـذكر الله فيها إلا قليلا} فجعل هـذه صـلاة المنـافقين لكونه أخرها عن الـوقت ونقرهـا. وقد ثبت في الصحيح {عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه ذكر الأمـراء بعـده الذين يفعلون ما ينكر ؛ وقالوا: يا رسول الله أفلا نقـاتلهم قـال: لا ما صلوا} وثبت عنه أنه قال: {سيكون أمـراء يـؤخرون الصـلاة

عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها ثم اجعلـوا صـلاتكم معهم نافلـة} فنهى عن قتالهم إذا صلوا وكان في ذلك دلالة على أنهم إذا لم يصـلوا قوتلـوا وبين أنهم يـؤخرون الصـلاة عن وقتها وذلك تـرك المحافظة عليها لا تركها. وإذا عـرف الفـرق بين الأمـرين فـالنبي صـلى الله عليه وسـلم إنما أدخل تحت المشـيئة من لم يحافظ عليها لا من تـــرك ونفس المحافظة يقتضي أنهم صـــلوا ولم يحافظوا عليها ولا يتناول من لم يحافظ فإنه لو تناول ذلك قتلوا كفـارا مرتـدين بلا ريب ولا يتصـور في العـادة أن رجلا يكـون مؤمنا بقلبه مقـرا بـأن الله أوجب عليه الصـلاة ملتزما لشـريعة النـبي صـلى الله عليه وسـلم وما جـاء به يـأمره ولي الأمر بالصلاة فيمتنع حتى يقتل ويكون مع ذلك مؤمنا في البـاطن قط لا يكـون إلا كـافرا ولو قـال أنا مقر بوجوبها غـير أني لا أفعلها كـان هـذا القـول مع هـذه الحـال كـذبا منه كما لو أخذ يلقي المصحف في الحش ويقـول أشـهد أن ما فيه كلام الله أو جعل يقتل نبيا من الأنبياء ويقول أشهد أنه رسـول الله ونحو ذلك من الأفعال التي تنافي إيمـان القلب فـإذا قـال أنا مـؤمن بقلـبي مع هذه الحال كان كاذبا فيما أظهره من القول. فهذا الموضع ينبغي تدبره فمن عرف ارتباط الظاهر بالبـاطن زالت عنه الشـبهة في هذا البـاب وعلم أن من قـال من الفقهـاء أنه إذا أقر بـالوجوب وامتنع عن الفعل لا يقتل أو يقتل مع إسلامه ؛ فإنه دخلت عليه الشـبهة الـتي دخلت على المرجئة والجهمية والـتي دخلت على من جعل الإرادة الجازمة مع القـدرة التامة لا يكـون بها شـيء من الفعل ولهذا كان الممتنعون من قتل هـذا من الفقهـاء بنـوه على قولـــهم في " مســألة الإيمــان " وأن الأعمــال ليست من الإيمان وقد تقدم أن جنس الأعمال من لوازم إيمـان القلب وأن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع سـواء جعل الظاهر من لوازم الإيمـان أو جـزءا من الإيمـان كما تقـدم بيانه. وحينئذ فإذا كان العبد يفعل بعض المأمورات ويـترك بعضـها كـــان معه من الإيمـــان بحسب ما فعله والإيمـــان يزيد وينقص ويجتمع في العبد إيمـان ونفـاق. كما ثبت عنه في الصـحيح أنه قال: {أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصـلة من النفـاق حـتى يـدعها إذا حـدث كـذب وإذا اؤتمن خـان وإذا عاهد غـدر وإذا خاصم فجـر}. وبهـذا تـزول الشبهة في هذا البـاب فـإن كثـيرا من النـاس ؛ بل أكـثرهم في كثير من الأمصار لا يكونون محافظين على الصلوات الخمس ولا هم تاركوها بالجملة بل يصلون أحيانا ويدعون أحيانا فهـؤلاء فيهم إيمان ونفاق وتجري عليهم أحكام الإسلام الظاهرة في المـواريث

ونحوها من الأحكام ؛ فإن هذه الأحكـام إذا جـرت على المنـافق المحض - كـابن أبي وأمثاله من المنــافقين - فلأن تجــري على هؤلاء أولى وأحرى. وبيان " هذا الموضع " مما يزيل الشبهة: فــإن كثــيرا من الفقهــاء يظن أن من قيل هو كــافر فإنه يجب أن تجـري عليه أحكـام المرتد ردة ظـاهرة فلا يـرث ولا يـورث ولا يناكح حتى أجروا هذه الأحكام على من كفـروه بالتأويل من أهل البدع وليس الأمر كـذلك ؛ فإنه قد ثبت أن النـاس كـانوا " ثلاثة أصـناف: "مـؤمن ؛ وكـافر مظهر للكفر ومنـافق مظهر للإســلام مبطن للكفــر. وكـان في المنــافقين من يعلمه النــاس بعلامــات ودلالات بل من لا يشــكون في نفاقه ومن نــزل القــرآن ببيــان نفاقه - كـابن أبي وأمثاله - ومع هــذا فلما مــات هــؤلاء ورثهم ورثتهم المسلمون وكان إذا مات لهم ميت آتـوهم ميراثه وكـانت تعصم دماؤهم حتى تقوم السنة الشرعية على أحدهم بما يـوجب عقوبتــه. ولما خــرجت الحرورية على علي بن أبي طــالب رضي الله عنه واعـتزلوا جماعة المسـلمين قـال لهم: إن لكم علينا ألا نمنعكم المســاجد ولا نمنعكم نصــيبكم من الفيء فلما اســتحلوا قتل المسلمين وأخذ أموالهم قاتلهم بـأمر النبي صـلى الله عليه وسلم حيث قـال: {يحقر أحـدكم صـلاته مع صـلاتهم وصـيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القـرآن لا يجـاوز حنـاجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة}. فكـانت الحرورية قد ثبت قتـالهم بسـنة النـبي صـلى الله عليه وسلم ؛ واتفاق أصحابه ولم يكن قتالهم قتال فتنة كالقتال الـذي جــرى بين فئـتين عظيمــتين في المســلمين ؛ بل قد ثبت عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم في الحـديث الصـحيح الـذي رواه البخاري أنه {قال للحسن ابنه: إن ابني هـذا سـيد وسيصـلح الله به بين فئـتين عظيمــتين من المســلمين} وقــال في الحــديث الصـحيح: {تمـرق مارقة على حين فرقة من المسـلمين فتقتلهم أدنى الطـائفتين إلى الحـق} فـدل بهـذا على أن ما فعله الحسن من ترك القتال إما واجبا أو مستحبا لم يمدحه النبي صــلى الله عليه وســلم على تــرك واجب أو مســتحب ودل الحــديث الآخر على أن الذين قاتلوا الخوارج وهم علي وأصحابه كان أقرب إلى الحق من معاوية وأصـحابه ؛ وأن قتــال الخــوارج أمر به النــبي صلى الله عليه وسـلم ليس قتـالهم كالقتـال في الجمل وصـفين الــذي ليس فيه أمر من النــبي. و (المقصــود) أن علي بن أبي طالب وغيره من أصحابه لم يحكمـوا بكفـرهم ولا قـاتلوهم حـتى بدءوهم بالقتال. والعلماء قد تنازعوا في تكفير أهل البدع والأهواء

وتخليدهم في النـار وما من الأئمة إلا من حكي عنه في ذلك " قـولان " كمالك والشـافعي وأحمد وغـيرهم وصـار بعض أتبـاعهم يحكي هـذا الـنزاع في جميع أهل البـدع ؛ وفي تخليـدهم حـتى الـتزم تخليـدهم كل من يعتقد أنه مبتـدع بعينه وفي هـذا من الخطأ ما لا يحصى ؛ وقابله بعضـهم فصـار يظن أنه لا يطلق كفر أحد من أهل الأهواء ؛ وإن كانوا قد أتوا من الإلحاد وأقوال أهل التعطيل والاتحـاد. والتحقيق في هـذا: أن القـول قد يكـون كفرا كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم ولا يرى في الآخـرة ؛ ولكن قد يخفى على بعض النـاس أنه كفر فيطلق القول بتكفير القائل ؛ كما قال السلف من قال: القـرآن مخلـوق فهو كـافر ومن قـال: إن الله لا يـرى في الآخـرة فهو كـافر ولا يكفر الشـخص المعين حـتى تقـوم عليه الحجة كما تقـدم كمن جحد وجوب الصلاة. والزكاة واستحل الخمر ؛ والزنا وتـأول، فـإن ظهـور تلك الأحكـام بين المسـلمين أعظم من ظهـور هـذه فـإذا كان المتأول المخطئ في تلك لا يحكم بكفـره إلا بعد البيـان له واستتابته - كما فعل الصـحابة في الطائفة الـذين اسـتحلوا الخمر - ففي غير ذلك أولى وأحرى وعلى هذا يخرج الحـديث الصـحيح. {في الـذي قـال: إذا أنا مت فـأحرقوني ثم اسـحقوني في اليم فوالله لئن قـدر الله علي ليعـذبني عـذابا ما عذبه أحـدا من العـالمين} وقد غفر الله لهـذا مع ما حصل له من الشك في قدرة الله وإعادته إذا حرقوه وهذه المسـائل مبسـوطة في غـير هذا الموضع. فإن قيل: فالله قد أمر بجهاد الكفار والمنـافقين في آيتين من القرآن فإذا كـان المنـافق تجـري عليه أحكـام الإسـلام في الظاهر فكيف يمكن مجاهدته. قيل ما يسـتقر في القلب من إيمان ونفاق لا بد أن يظهر موجبه في القـول والعمل كما قـال بعض السـلف: ما أسر أحد سـريرة إلا أبـداها الله على صـفحات وجهه وفلتـات لسـانه وقد قـال تعـالى في حق المنـافقين: {ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسـيماهم ولتعـرفنهم في لحن القـول}. فـإذا أظهر المنـافق من تـرك الواجبـات وفعل المحرمـات ما يسـتحق عليه العقوبة عـوقب على الظـاهر ولا يعـاقب على ما يعلم من باطنه بلا حجة ظـاهرة ؛ ولهـذا كـان النـبي صـلى الله عليه وسـلم يعلم من المنـافقين من عرفه الله بهم وكـانوا يحلفـون له وهم كـاذبون ؛ وكـان يقبل علانيتهم ويكل سـرائرهم إلى الله. وأسـاس النفـاق الـذي بـنى عليه أن المنـافق لا بد أن تختلف سـريرته وعلانيته وظـاهره وباطنه ولهـذا يصـفهم الله في كتابه بالكذب كما يصف المؤمـنين بالصـدق ؛ قـال تعـالى: {ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون}. وقـال: {والله يشـهد إن المنـافقين

لكاذبون}. وأمثال هذا كثير. وقال تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} وقال: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب} - إلى قوله - {أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون}. و " بالجملة " فأصل هذه المسائل أن تعلم أن الكفر " نوعان ": كفر ظاهر وكفر نفاق فإذا تكلم في أحكام الآخرة كان حكم المنافق حكم الكفار وأما في أحكام الدنيا فقد تجري على المنافق أحكام المسلمين. وقد تبين أن الدين لا بد فيه من قول وعمل وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبا ظاهرا ولا صلاة ولا زكاة ولا صياما ولا غير ذلك من الواجبات لا لأجل أن الله أوجبها مثل أن يؤدي الأمانة أو يصدق الحديث أو يعدل في قسمه وحكمه من غير إيمان بالله ورسوله لم يخرج بذلك من الكفر فإن المشركين وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور فلا يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد صلى الله عليه وسلم. ومن قال: بحصول الإيمان الواجب بدون فعل شيء من الواجبات سواء جعل فعل تلك الواجبات لازما له ؛ أو جزءا منه فهذا نزاع لفظي كان مخطئا خطأ بينا وهذه بدعة الإرجاء التي أعظم السلف والأئمة الكلام في أهلها وقالوا فيها من المقالات الغليظة ما هو معروف والصلاة هي أعظمها وأعمها وأولها وأجلها.

فصل (ص622)

وأما " الإحسان " فقوله: {أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك}. قد قيل: إن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق: أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى: {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} وقال تعالى: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا} فذكر إحسان الدين أولا ثم ذكر الإحسان ثانيا فإحسان الدين هو - والله أعلم - الإحسان المسئول عنه في حديث جبريل فإنه سأله عن الإسلام والإيمان ؛ ففي (آخر ما وجد في الأصل).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(فصل) (ص623)

قد ذكرت فيما تقدم من القواعد: أن " الإسلام " الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه ؛ وأرسل به رسله ؛ وهو أن يسلم العبد لله رب العـالمين ؛ فيستسـلم لله وحـده لا شـريك له ويكون سالما له بحيث يكون متألها له غير متأله لما سـواه كما بينته أفضل الكلام ورأس الإسلام: وهو شهادة أن لا إله إلا اللـه. وله ضدان: الكبر والشرك ولهذا روي {أن نوحا عليه السلام أمر بنيه بلا إله إلا الله وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك} في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضع فإن المستكبر عن عبـادة الله لا يعبـده فلا يكـون مستسـلما له والـذي يعبـده ويعبد غـيره يكـون مشـركا به فلا يكـون سـالما له بل يكـون له فيه شـرك. ولفظ " الإسلام " يتضمن الاستسلام والسلامة الـتي هي الإخلاص وقد علم أن الرسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام المتضمن لـذلك كما قال تعالى: {يحكم بها النبيون الذين أسـلموا} وقـال موسـى: {إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلـوا إن كنتم مسـلمين} وقـال تعـالى: {بلى من أسـلم وجهه لله وهو محسن فله أجـره عند ربه} وقـال الخليل لما قـال له ربـه: {أسـلم قـال أسـلمت لـرب العالمين} {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب} - أيضا وصى بها بنيه - {يا بـني إن الله اصـطفى لكم الـدين فلا تمـوتن إلا وأنتم مسلمون} وقال يوسف: {توفني مسلما} ونظائره كثـيرة. وعلم أن إبراهيم الخليل هو إمـام الحنفـاء المسـلمين بعـده كما جعله أمة وإماما وجاءت الرسل من ذريته بذلك فابتدعت اليهـود والنصـارى ما ابتـدعوه مما خـرج بهم عن دين الله الـذي أمـروا به وهو الإسلام العام ولهذا أمرنا أن نقـول: {اهـدنا الصـراط المسـتقيم} {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضـوب عليهم ولا الضـالين} وقد ثبت عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {اليهـود مغضوب عليهم والنصارى ضالون} وكل من هاتين الأمتين خرجت عن الإسـلام وغلب عليها أحد ضـديه فـاليهود يغلب عليهم الكـبر ويقل فيهم الشـرك والنصـارى يغلب عليهم الشـرك ويقل فيهم الكبر. وقد بين الله ذلك في كتابه فقـال في اليهـود: {وإذ أخـذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا اللـه}. وهـذا هو أصل الإسـلام. إلى قولـه: {وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القـدس أفكلما جـاءكم رسـول بما لا تهـوى أنفسـكم اسـتكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون}. وهذا اللفظ الذي هو لفظ الاستفهام ؛ هو إنكـار لـذلك عليهم. وذم لهم عليه وإنما يـذمون على ما فعلـوه فعلم أنهم كـانوا كلما جـاءهم رسـول بما لا تهـوى أنفسـهم استكبروا فيقتلون فريقا من الأنبياء ويكـذبون فريقا ؛ وهـذا حـال

المستكبر الذي لا يقبل ما لا يهواه ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر الكبر في الحديث الصحيح بأنه بطر الحق وغمط الناس ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: {لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذاك ؟ فقال: لا إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس} وبطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم. وكذلك ذكر الله " الكبر " في قوله بعد أن قال: {وكتبنا له في الألواح من كل شيء} إلى أن قال: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا}. وهذا حال الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وهو الغاوي كما قال: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين} {ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه} الآية وهذا مثل علماء السوء وقد قال لما رجع موسى إليهم: {ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون} فالذين يرهبون ربهم ؛ خلاف الذين يتبعون أهواءهم كما قال تعالى: {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى} {فإن الجنة هي المأوى}. فأولئك المستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ولا يفهمون لما تركوا العمل بما علموه استكبارا واتباعا لأهوائهم عوقبوا بأن منعوا الفهم والعلم ؛ فإن العلم حرب للمتعالي كما أن السيل حرب للمكان العالي والذين يرهبون ربهم عملوا بما علموه فأتاهم الله علما ورحمة إذ من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ولهذا لما وصف الله النصارى: {بأن منهم قسيسين ورهبانا}. والرهبان: من الرهبنة {وأنهم لا يستكبرون} كانوا بذلك أقرب مودة إلى الذين آمنوا. كما قال: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون}. فلما كان فيهم رهبة وعدم كبر كانوا أقرب إلى الهدى فقال في حق المسلمين منهم: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين}. قال ابن عباس: مع محمد وأمته وهم الأمة الشهداء فإن النصارى لهم قصد وعبادة

وليس لهم علم وشهادة ؛ ولهـذا فـإن كـان اليهـود شـرا منهم ؛ بـأنهم أكـثر كـبرا وأقل رهبة وأعظم قسـوة فـإن النصـارى شر منهم فإنهم أعظم ضلالا وأكثر شـركا وأبعد عن تحـريم ما حـرم الله ورسوله. وقد وصفهم الله بالشرك الـذي ابتـدعوه كما وصف اليهود بالكبر الذي هووه فقال تعالى: {اتخـذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} وقال تعالى: {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للنـاس اتخـذوني وأمي إلهين من دون الله قال سـبحانك ما يكـون لي أن أقـول ما ليس لي بحـــق} إلى قولـــه: {أن اعبــدوا الله ربي وربكم} الآية وقد ذكر الله قولـهم إن الله هو المسـيح ابن مـريم وإن الله ثـالث ثلاثة وقولـــــهم: اتخذ الله ولـــــدا ؛ في مواضع من كتابه وبين عظيم فـريتهم وشـتمهم لله وقولــهم " الإد " الـذي: {تكـاد السـماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا} ولهذا يـدعوهم في غير موضع إلى ألا يعبدوا إلا إلها واحدا كقولـــه: {يا أهل الكتـاب لا تغلـوا في دينكم ولا تقولـوا على الله إلا الحـق} إلى قولــه: {ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خـيرا لكم إنما الله إله واحد سـبحانه أن يكون له ولد} إلى قولـه {لن يسـتنكف المسـيح أن يكـون عبـدا لله ولا الملائكة المقربــون ومن يســتنكف عن عبادته ويســتكبر فسيحشرهم إليه جميعا} وهذا لأن المشركين بمخلـوق من البشر أو غـيرهم يصـيرون هم مشـركون. ويصـير الـذي أشـركوا به من الإنس والجن مسـتكبرا كما قـال: {وأنه كـان رجـال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا} فأخبر الله أن عبـاده لا يسـتكبرون عن عبادته وإن أشـرك بهم المشـركون. وكـذلك قـال تعالى: {لقد كفر الذين قـالوا إن الله ثـالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد} إلى قولـه: {ما المسيح ابن مريم إلا رسـول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة} الآية وقال تعالى: {لقد كفر الذين قــالوا إن الله هو المســيح ابن مــريم وقــال المســيح يا بــني إسرائيل اعبـدوا الله ربي وربكم إنه من يشـرك بالله فقد حـرم الله عليه الجنـــة} فـــأخبر أنه أمـــرهم بالتوحيد ونهـــاهم عن أن يشركوا به أو بغيره كما فعلوه. ولما كان أصل دين اليهود الكـبر عاقبهم بالذلـة: فضـربت عليهم الذلة أينما ثقفـوا. ولما كـان أصل دين النصــارى الإشــراك لتعديد الطــرق إلى الله أضــلهم عنه ؛ فعوقب كل من الأمتين على ما اجترمه بنقيض قصده {وما ربك بظلام للعبيد}. كما جاء في الحديث: {يحشر الجبارون والمتكبرون يـوم القيامة في صـور الـذر يطـؤهم النـاس بـأرجلهم}. وكما في الحديث عن عمر بن الخطاب موقوفا ومرفوعـا: {ما من أحد إلا

في رأسه حكمة فإن تواضع قيل له: انتعش نعشك الله وإن رفع رأسه قيل لـه: انتكس نكسك اللـه}. وقـال سـبحانه وتعـالى: {إن الـذين يسـتكبرون عن عبـادتي سـيدخلون جهنم داخـرين} وقـال تعـالى: {بلى قد جاءتك آيـاتي فكـذبت بها واسـتكبرت وكنت من الكـافرين} {ويـوم القيامة تـرى الـذين كـذبوا على الله وجـوههم مسـودة أليس في جهنم مثـوى للمتكـبرين} {وينجي الله الـذين اتقوا بمفـازتهم}. ولهـذا اسـتوجبوا الغضب والمقت. والنصـارى لما دخلوا في البـدع: أضـلهم عن سـبيل الله فضـلوا عن سـبيل الله وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل وهم إنما ابتدعوها ليتقربوا بها إليه ويعبـدوه فأبعـدتهم عنه وأضـلتهم عنه وصـاروا يعبـدون غـيره. فتـدبر هـذا والله تعـالى يهـدينا صـراطه المسـتقيم صـراط الـذين أنعم عليهم غـير المغضـوب عليهم والضـالين. وقد وصف بعض اليهود بالشرك في قولـه: {وقـالت اليهـود عزير ابن اللـه} وفي قولـــه: {قل هل أنــبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القـــــردة والخنـــــازير وعبد الطـاغوت} ففي اليهـود من عبد الأصـنام وعبد البشر ؛ وذلك أن المسـتكبر عن الحق يبتلى بالانقيـاد للباطل فيكـون المسـتكبر مشـــركا كما ذكر الله عن فرعـــون وقومـــه: أنهم كـــانوا مع استكبارهم وجحودهم مشركين فقال عن مؤمن آل فرعـون: {ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجـاة وتـدعونني إلى النـار} {تـدعونني لأكفر بالله وأشـــرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعـــوكم إلى العزيز الغفـار} {لا جـرم أنما تـدعونني إليه ليس له دعـوة في الـدنيا ولا في الآخـرة}. وقـال: {ولقد جـاءكم يوسف من قبل بالبينـات} الآيـة. وقـال يوسف الصـديق لهم: {يا صـاحبي السـجن أأربـاب متفرقـون خـير أم الله الواحد القهـار} {ما تعبـدون من دونه إلا أسـماء سـميتموها أنتم وآبـاؤكم ما أنـزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمـون} وقد قـال تعـالى: {وقـال الملأ من قـوم فرعـون أتـذر موسى وقومه ليفسـدوا في الأرض ويـذرك وآلهتك قـال سـنقتل أبنـاءهم ونسـتحيي نسـاءهم وإنا فـوقهم قـاهرون}. فـإن قيـل: كيف يكـون قـوم فرعـون مشـركين ؟ وقد أخـــبر الله عن فرعـــون أنه جحد الخـــالق فقـــال: {وما رب العالمين} وقال: {ما علمت لكم من إله غـيري} وقـال: {أنا ربكم الأعلى} وقال عن قومـه: {فلما جـاءتهم آياتنا مبصـرة قـالوا هـذا سـحر مـبين} {وجحـدوا بها واسـتيقنتها أنفسـهم ظلما وعلـوا} والإشـراك لا يكـون إلا من مقر بالله وإلا فالجاحد له لم يشـرك به. قيل: لم يذكر الله جحود الصـانع إلا عن فرعـون موسى وأما

الــذين كــانوا في زمن يوسف فــالقرآن يــدل على أنهم كــانوا مقرين بالله وهم مشركون به ولهـذا كـان خطـاب يوسف للملك وللعزيز ولهم: يتضــمن الإقــرار بوجــود الصــانع كقولــه: {أأربــاب متفرقون خير أم الله الواحد القهار} {ارجع إلى ربك فاسـأله ما بــال النســوة} إلى قولـه {إن ربي بكيــدهن عليم} {وأن الله لا يهدي كيد الخائنين} إلى قولـه: {إن النفس لأمـارة بالسـوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفــور رحيم} وقد قـــال مـــؤمن آل - حم - {ولقد جــاءكم يوسف من قبل بالبينــات فما زلتم في شك مما جـاءكم به حـتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعـده رسـولا} فهـذا يقتضـي: أن أولئك الــذين بعث إليهم يوسف كـانوا يقـرون باللــه. ولهــذا كــان إخــوة يوسف يخاطبونه قبل أن يعرفــوا أنه يوسف ويظنونه من آل فرعـون بخطـاب يقتضي الإقـرار بالصـانع كقولـــــهم: {تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا ســارقين} وقــال لهم: {أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصــفون} وقال: {معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده} وقالوا لــه: {يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فـأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين} وذلك أن فرعــون الــذي كــان في زمن يوسف أكــرم أبويه وأهل بيته لما قــدموا إكراما عظيما مع علمه بدينهم واستقراء أحوال الناس يــدل على ذلــك. فــإن جحــود الصــانع لم يكن دينا غالبا على أمة من الأمم قط وإنما كـان دين الكفـار الخـارجين عن الرسـالة هو الإشـراك وإنما كـان يجحد الصـانع بعض النـاس وأولئك كـان علمـاؤهم من الفلاسـفة الصـابئة المشـركين الـذين يعظمـون الهياكل والكـواكب والأصـنام والأخبـار المروية من نقل أخبـارهم وسـيرهم كلها تـدل على ذلك ؛ ولكن فرعــون موســى: {فاســتخف قومه فأطــاعوه} وهو الــذي قــال لهم - دون الفراعنة المتقــدمين - ؛ {ما علمت لكم من إله غــيري} ثم قــال لهم بعد ذلــك: {أنا ربكم الأعلى} {فأخـذه الله نكـال الآخـرة والأولى} نكـال الكلمة الأولى. ونكـال الكلمة الأخـيرة وكـان فرعـون في البـاطن عارفا بوجـود الصـانع وإنما استكبر كإبليس وأنكر وجـوده ولهـذا قـال له موسـى: {لقد علمت ما أنــزل هــؤلاء إلا رب الســماوات والأرض بصــائر} فلما أنكر الصانع وكـانت له آلهة يعبـدها بقي على عبادتها ولم يصـفه الله تعــالى بالشــرك وإنما وصــفه بجحــود الصــانع وعبــادة آلهة أخــرى. والمنكر للصــانع منهم مســتكبر كثــيرا ما يعبد آلهة ؛ ولا يعبد الله قط ؛ فإنه يقــول: هــذا العــالم واجب الوجــود بنفســه. وبعض أجزائه مـؤثر في بعض ويقـول إنما انتفع بعبـادة الكـواكب والأصــنام ونحو ذلك ولهــذا كــان بــاطن قــول هــؤلاء الاتحادية

المنتسبة إلى الإسلام هو قول فرعون. وكنت أبين أنه مذهبهم وأبين أنه حقيقة مذهب فرعون حتى حدثني الثقة: عن بعض طواغيتهم أنه قال: نحن على قول فرعون ؛ ولهذا يعظمون فرعون في كتبهم تعظيما كثيرا. فإنهم لم يجعلوا ثم صانعا للعالم خلق العالم ولا أثبتوا ربا مدبرا للمخلوقات وإنما جعلوا نفس الطبيعة هي الصانع ولهذا جوزوا عبادة كل شيء وقالوا من عبده فقد عبد الله ولا يتصور عندهم أن يعبد غير الله فما من شيء يعبد إلا وهو الله وهذه الكائنات عندهم أجزاؤه أو صفاته كأجزاء الإنسان أو صفاته فهؤلاء إذا عبدوا الكائنات فلم يعبدوها لتقربهم إلى الله زلفى ؛ لكن لأنها عندهم هي الله أو مجلى من مجاليه أو بعض من أبعاضه أو صفة من صفاته أو تعين من تعيناته وهؤلاء يعبدون ما يعبده فرعون وغيره من المشركين لكن فرعون لا يقول: هي الله ولا تقربنا إلى الله والمشركون يقولون: هي شفعاؤنا وتقربنا إلى الله وهؤلاء يقولون هي الله كما تقدم وأولئك أكفر من حيث اعترفوا بأنهم عبدوا غير الله أو جحدوه ؛ وهؤلاء أوسع ضلالا من حيث جوزوا عبادة كل شيء وزعموا أنه هو الله وأن العابد هو المعبود وإن كانوا إنما قصدوا عبادة الله. وإذا كان أولئك كانوا مشركين كما وصفوا بذلك. وفرعون موسى هو الذي جحد الصانع وكان يعبد الآلهة ولم يصفه الله بالشرك. فمعلوم أن المشركين قد يحبون آلهتهم كما يحبون الله أو تزيد محبتهم لهم على محبتهم لله ؛ ولهذا: يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم. كما قال تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم}. فقوم فرعون قد يكونون أعرضوا عن الله بالكلية بعد أن كانوا مشركين به واستجابوا لفرعون في قوله: {أنا ربكم الأعلى} و {ما علمت لكم من إله غيري}. ولهذا لما خاطبهم المؤمن ذكر الأمرين فقال: {تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم} فذكر الكفر به الذي قد يتناول جحوده وذكر الإشراك به أيضا ؛ فكان كلامه متناولا للمقالتين والحالين جميعا. فقد تبين: أن المستكبر يصير مشركا إما بعبادة آلهة أخرى مع استكباره عن عبادة الله لكن تسمية هذا شركا نظير من امتنع مع استكباره عن إخلاص الدين لله كما قال تعالى: {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} {ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون} فهؤلاء مستكبرون مشركون ؛ وإنما استكبارهم عن إخلاص الدين لله فالمستكبر الذي لا يقر بالله في الظاهر كفرعون أعظم كفرا منهم وإبليس الذي يأمر بهذا كله ويحبه ويستكبر عن عبادة ربه وطاعته أعظم كفرا من هؤلاء وإن كان

عالما بوجود الله وعظمته كما أن فرعون كان أيضا عالما بوجود الله. وإذا كانت البدع والمعاصي شعبة من الكفر وكانت مشتقة من شعبه. كما أن الطاعات كلها شعبة من شعب الإيمان ومشتقة منه وقد علم أن الذي يعرف الحق ولا يتبعه غاو يشبه اليهود ؛ وأن الذي يعبد الله من غير علم وشرع: هو ضال يشبه النصارى ؛ كما كان يقول من يقول من السلف: من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ؛ ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى. فعلى المسلم أن يحذر من هذين الشبهين الفاسدين ؛ من حال قوم فيهم استكبار وقسوة عن العبادة والتأله ؛ وقد أوتوا نصيبا من الكتاب وحظا من العلم ؛ وقوم فيهم عبادة وتأله بإشراك بالله وضلال عن سبيل الله ووحيه وشرعه وقد جعل في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وهذا كثير منتشر في الناس ؛ والشبه تقل تارة وتكثر أخرى ؛ فأما المستكبرون المتألهون لغير الله الذين لا يعبدون الله. وإنما يعبدون غيره للانتفاع به ؛ فهؤلاء يشبهون فرعون.

وقال رحمه الله تعالى:

فصل (ص635)

لفظ " الإسلام " يستعمل على وجهين: " متعديا " كقوله: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن} وقوله: {فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم} الآية {وقوله صلى الله عليه وسلم في دعاء المنام. أسلمت نفسي إليك}. ويستعمل " لازما " كقوله: {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} وقوله: {وله أسلم من في السماوات والأرض} وقوله عن بلقيس: {وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين}. وهو يجمع معنيين: (أحدهما) الانقياد والاستسلام. و (الثاني): إخلاص ذلك وإفراده. كقوله: {ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل}. وعنوانه قول لا إله إلا الله. وله معنيان. (أحدهما): الدين المشترك وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء ؛ كما دل على اتحاد دينهم نصوص الكتاب والسنة. و (الثاني) ما اختص به محمد من الدين والشرعة والمنهاج - وهو الشريعة والطريقة والحقيقة - وله مرتبتان: (أحدهما) الظاهر من القول والعمل وهي المباني الخمس. و (الثاني): أن يكون ذلك الظاهر مطابقا للباطن. فبالتفسير الأول [جاءت] الآيتان في كتاب الله والحديثان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعم من

الإيمـان فكل مـؤمن مسـلم وليس كل مسـلم مؤمنـا. وبالتفسـير الثـاني يقـال: {إن الـدين عند الله الإسـلام} وقولــه: {وذلك دين القيمـة} وقولــه: آمـركم بالإيمـان بالله وفسـره بخصـال الإسـلام وعلى هـذا التفسـير فالإيمـان التـام والـدين والإسـلام سـواء وهو الذي لم يفهم المعتزلة غيره. وقد يراد به معنى ثـالث هو كماله وهو قولــه: {المسـلم من سـلم المسـلمون من لسـانه ويـده} فيكون أسلم غيره أي جعله سالما منه. ولفظ الإيمان: قيل أصـله التصــديق - وليس مطابقا له ؛ بل لا بد أن يكــون تصــديقا عن غيب وإلا فــالخبر عن مشـــهود ليس تصــديقه إيمانا ؛ لأنه من الأمن الذي هو الطمأنينة وهـذا إنما يكـون في المخـبر الـذي قد يقع فيه ريب والمشـــهودات لا ريب فيهـــا. إلا على هـــذا - فأما تصديق القلب فقط كما تقول الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية وأما القلب واللسـان كما تقولـه المرجئة أو باللسـان كما تقولـه الكرامية وأما التصــديق بــالقلب والقــول والعمل - فــإن الجميع يدخل في مسمى التصديق على مذهب أهل الحديث كما فسـره شيخ الإسلام وغيره -. وقيـل: بل هو الإقـرار ؛ لأن التصـديق إنما يطـابق الخـبر فقط وأما الإقـرار فيطـابق الخـبر والأمر كقولــه: {أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنـا} ولأن قر وآمن: متقاربان. فالإيمـان دخـول في الأمن والإقـرار دخـول في الإقـرار وعلى هــذا فالكلمة إقــرار والعمل بها إقــرار أيضـا. ثم هو في الكتاب بمعنيين: أصل وفرع واجب فالأصل الـذي في القلب وراء العمل فلهذا يفرق بينهما بقولـه: {آمنوا وعملوا الصالحات} والذي يجمعهما كما في قولــه: {إنما المؤمنــون} {لا يســتأذنك الــذين يؤمنون}. وحديث " الحيا " و " وفد عبد القيس " وهو مركب من أصل لا يتم بدونه ومن واجب ينقص بفواته نقصا يستحق صاحبه العقوبة ومن مســتحب يفــوت بفواته علو الدرجة فالنـــاس فيه ظالم لنفسه ومقتصد وسابق كـالحج وكالبـدن والمسـجد وغيرهما من الأعيـان والأعمـال والصـفات فمن سـواء أجزائه ما إذا ذهب نقص عن الأكمل ومنه ما نقص عن الكمال وهو تـرك الواجبـات أو فعل المحرمـــات ومنه ما نقص ركنه وهو تـــرك الاعتقـــاد والقـول: الـذي يـزعم المرجئة والجهمية أنه مسـمى فقط وبهـذا تزول شبهات الفـرق. وأصـله القلب وكماله العمل الظـاهر بخلاف الإسلام فإن أصله الظاهر وكماله القلب.

وقال رحمه الله

فصل (ص638)

معلوم أن أصل " الإيمان " هو الإيمـان بالله ورسـوله وهو أصل العلم الإلهي كما بينته في أول الجـزء. فأما " الإيمـان بالله " فهو في الجملة قد أقر به جمهور الخلائق إلا شواذ الفرق من الفلاسـفة الدهرية والإسـماعيلية ونحـوهم أو من نـافق فيه من المظهـــــــرين للتمسك بالملل وإنما يقع اختلاف أهل الملل في أســمائه وصــفاته وأفعاله وأحكامه وعباداته ونحو ذلــك. وأما " الإيمــان بالرســول " فهو المهم إذ لا يتم الإيمــان بالله بــدون الإيمان به ولا تحصل النجـاة والسـعادة بدونه إذ هو الطريق إلى الله سبحانه ؛ ولهذا كان ركنا الإسلام: " أشـهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله " ومعلوم أن الإيمان هو الإقـرار ؛ لا مجرد التصديق. والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الــذي هو الانقيــاد - تصــديق الرســول فيما أخــبر والانقيـــاد له فيما أمر كما أن الإقـــرار بالله هو الاعـــتراف به والعبـادة له فالنفـاق يقع كثـيرا في حق الرسـول وهو أكـثر ما ذكره الله في القـرآن من نفـاق المنـافقين في حياته والكفر هو عــدم الإيمــان ســواء كــان معه تكــذيب أو اســتكبار أو إبــاء أو إعراض ؛ فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقيـاد فهو كـافر. ثم هنا " نفاقــان ": نفـاق لأهل العلم والكلام ونفـاق لأهل العمل والعبادة - فأما النفاق المحض الذي لا ريب في كفر صاحبه فأن لا يرى وجوب تصـديق الرسـول فيما أخـبر به ولا وجـوب طاعته فيما أمر به وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول عظيم القـدر - علما وعملا وأنه يجـــوز تصـــديقه وطاعته ؛ لكنه يقـــول: إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كـان المعبـود واحـدا ويـرى أنه تحصل النجـاة والسـعادة بمتابعة الرسـول وبغـير متابعته ؛ إما بطريق الفلسـفة والصبوء أو بطريق التهود والتنصر كما هو: قول الصابئة الفلاسفة في هذه المسألة وفي غيرها فإنهم وإن صدقوه وأطاعوه فــإنهم لا يعتقــدون وجــوب ذلك على جميع أهل الأرض ؛ بحيث يكــون التــارك لتصــديقه وطاعته معــذبا ؛ بل يــرون ذلك مثل التمسك بمـذهب إمـام أو طريقة شـيخ أو طاعة ملك ؛ وهـذا دين التتـار ومن دخل معهم. أما النفــاق الــذي هو دون هــذا ؛ فــأن يطلب العلم بالله من غير خــبره ؛ أو العمل لله من غـير أمـره ؛ كما يبتلى بالأول كثير من المتكلمة. وبالثاني كثـير من المتصـوفة فهم يعتقــدون أنه يجب تصــديقه أو تجب طاعته لكنهم في ســلوكهم العلمي والعملي غير سـالكين هـذا المسـلك بل يسـلكون مسـلكا آخر: إما من جهة القيـاس والنظر وإما من جهة الـذوق والوجد ؛ وإما من جهة التقليد ؛ وما جــاء عن الرســول إما أن يعرضــوا

عنه وإما أن يردوه إلى ما سلكوه ؛ فانظر نفاق هذين الصـنفين مع اعـترافهم باطنا وظـاهرا بـأن محمـدا صـلى الله عليه وسـلم أكمل الخلق وأفضل الخلق وأنه رســول وأنه أعلم النـــاس لكن إذا لم يوجبوا متابعته وسوغوا ترك متابعته كفروا وهذا كثير جـدا لكن بسط الكلام في حكم هؤلاء: له موضع غير هذا.

انتهى

مسائل متفرقة في الإيمان

من غير كتابي الإيمان ((الكبير)) و ((الأوسط))

(ص641) سئل رحمه الله: عن (الإيمان بالله ورسوله هل فوقه مقام من المقامات أو حال من الأحوال أم لا ؟ وهل يدخل فيه جميع المقامات والأحوال المحمودة عند الله ورسوله أم لا ؟ وهل تكون صفة الإيمان نورا يوقعه الله في قلب العبد ويعرف العبد عند وقوعه في قلبه الحق من الباطل أم لا ؟ وهل يكون لأول حصوله سبب من الأسباب - مثل رؤية أهل الخير أو مجالستهم وصحبتهم أو تعلم عمل من الأعمال أو غير ذلك ؟. فإن كان لأول حصوله سبب فما هو ذلك السبب ؟ وما الأسباب أيضا التي يقوى بها الإيمان - إلى أن يكمل على ترتيبها ؟ هل يبدأ بالزهد حتى يصححه ؟ أم بالعلم حتى يرسخ فيه ؟ أم بالعبادة حتى يجهد نفسه ؟ أم يجمع بين ذلك على حسب طاقته ؟ أم كيف يتوصل إلى حقيقة الإيمان الذي مدحه الله ورسوله ؟ بينوا لنا الأسباب وأنواعها وشرحها التي يتوصل بها إلى حقيقة الإيمان وما وصف صاحبه - رضي الله عنكم

فأجاب الحمد لله رب العالمين اسم " الإيمان " يستعمل مطلقا ويستعمل مقيدا وإذا استعمل مطلقا فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويدخلون جميع الطاعات فرضها ونفلها في مسماه وهذا مذهب الجماهير من أهل الحديث والتصوف والكلام والفقه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم. ويدخل في ذلك ما قد يسمى مقاما وحالا مثل الصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا والخشية والإنابة والإخلاص والتوحيد وغير ذلك. ومن هذا ما خرج في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم - أنه قال: {الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان}. فذكر أعلى شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله فإنه لا شيء أفضل منها كما في الموطأ وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير} وفي الترمذي وغيره أنه قال: {من مات وهو يعلم أن لا

إله إلا الله دخل الجنـة} وفي الصـحيح عنه {أنه قـال: لعمه عند الموت يا عم قـل: لا إله إلا الله كلمة أحـاج لك بها عند اللـه}. وقد تظـاهرت الـدلائل على أن أحسن الحسـنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قـال تعـالى: {إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} وتلك الحسنة التي لا بد من سعادة صاحبها كما ثبت في الصــحيح عنه حـــديث الموجبــتين: موجبة الســعادة وموجبة الشـقاوة ؛ فمن مـات يشـهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار وذكر في الحديث أنها أعلا شعب الإيمـان. وفي الصـحيحين {عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال لوفد عبد القيس: آمـركم بالإيمـان بالله أتـدرون ما الإيمـان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكـاة وتـؤدوا خمس المغنم} فجعل هـذه الأعمـال من الإيمان وقد جعلها من الإسلام في {حديث جبرائيل الصـحيح - لما أتاه في صورة أعرابي - وسأله عن الإيمان ؛ فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد المـوت وتـؤمن بالقدر خيره وشره وسأله عن الإسلام فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمــدا رســول الله وتقيم الصــلاة وتــؤتي الزكــاة وتصــوم رمضــان وتحج الــبيت} وفي حــديث في المســند قــال: {الإسـلام علانية والإيمـان في القلب}. فأصل الإيمـان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد وما كـان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضـاه على الجـوارح وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ؛ ولهذا كانت الأعمال الظـاهرة من مـوجب إيمـان القلب ومقتضـاه وهي تصــديق لما في القلب ودليل عليه وشــاهد له وهي شــعبة من مجمـــــوع الإيمـــــان المطلق وبعض له ؛ لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح كما قال أبو هريـرة - رضي الله عنه -: إن القلب ملك والأعضاء جنوده فـإن طـاب الملك طـابت جنـوده وإذا خبث الملك خبثت جنــوده وفي الصــحيحين عنه صــلى الله عليه وسلم أنه قال: {إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها ســـائر الجسد وإذا فســـدت فسد لها ســـائر الجسد ألا وهي القلب}. ولهـذا ظن طوائف من النـاس أن الإيمـان إنما هو في القلب خاصة وما على الجوارح ليس داخلا في مسماه ولكن هو من ثمراته ونتائجه الدالة عليه حـــــتى آل الأمر بغلاتهم - كجهم وأتباعه - إلى أن قـالوا: يمكن أن يصـدق بقلبه ولا يظهر بلسـانه إلا كلمة الكفر مع قدرته على إظهارها فيكـون الـذي في القلب إيمانا نافعا له في الآخـرة وقـالوا: حيث حكم الشـارع بكفر أحد

بعمل أو قــول: فلكونه دليلا على انتفــاء ما في القلب وقولـــهم متناقض ؛ فإنه إذا كان ذلك دليلا مستلزما لانتفـاء الإيمـان الـذي في القلب امتنع أن يكـــون الإيمـــان ثابتا في القلب مع الـــدليل المســـتلزم لنفيه وإن لم يكن دليلا لم يجز الاســـتدلال به على الكفر البــاطن. والله ســبحانه في غــير موضع يــبين أن تحقيق الإيمان وتصديقه بما هو من الأعمال الظـاهرة والباطنـة. كقولــه: {إنما المؤمنـــون الـــذين إذا ذكر الله وجلت قلـــوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلــون} {الـذين يقيمــون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} {أولئك هم المؤمنون حقـا} وقـال: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهـدوا بـأموالهم وأنفسـهم في سـبيل الله أولئك هم الصـادقون} وقـال تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنـوا بالله ورسـوله وإذا كـانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه} وقال تعالى: {فلا وربك لا يؤمنـــون حـــتى يحكمـــوك فيما شـجر بينهم ثم لا يجـــدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}. فإذا قال القائل: هذا يدل على أن الإيمان ينتفي عند انتفاء هـذه الأمـور لا يـدل على أنها من الإيمان قيل هذا اعـتراف بأنه ينتفي الإيمـان البـاطن مع عدم مثل هذه الأمور الظاهرة فلا يجوز أن يدعي أنه يكـون في القلب إيمان ينـافي الكفر بـدون أمـور ظـاهرة: لا قـول ولا عمل وهو المطلـــوب - وذلك تصـــديق - وذلك لأن القلب إذا تحقق ما فيه أثر في الظـاهر ضـرورة لا يمكن انفكـاك أحـدهما عن الآخر فالإرادة الجازمة للفعل مع القـدرة التامة تـوجب وقـوع المقـدور فإذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتا استلزم موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه {لا تجد قوما يؤمنـون بالله واليـوم الآخر يـوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخـــوانهم أو عشــيرتهم} {ولو كــانوا يؤمنـــون بالله والنـــبي وما أنـــزل إليه ما اتخذوهم أولياء} فهـذا التلازم أمر ضـروري. ومن جهة ظن انتفـاء التلازم غلط غـالطون ؛ كما غلط آخـرون في جـواز وجـود إرادة جازمة مع القـدرة التامة بـدون الفعل حـتى تنـازعوا: هل يعـاقب على الإرادة بلا عمل ؟ وقد بســطنا ذلك في غــير هــذا الموضع وبينــا: أن الهمة الــتي لم يقــترن بها فعل ما يقــدر عليه الهــام ليست إرادة جازمة وأن الإرادة الجازمة لا بد أن يوجد معها ما يقـــدر عليه العبد والعفو وقع عمن هم بســـيئة ولما يفعلها ؛ لا عن من أراد وفعل المقـــدور عليه وعجز عن حصـــول مـــراده كالــذي أراد قتل صــاحبه فقاتله حــتى قتل أحــدهما ؛ فــإن هــذا يعـــاقب ؛ لأنه أراد وفعل المقـــدور من المـــراد ومن عـــرف الملازمات التي بين الأمـور الباطنة والظـاهرة زالت عنه شـبهات

كثيرة في مثل هذه المواضع التي كثر اختلاف الناس فيها.

بقي أن يقال: فهل اسم الإيمان للأصل فقط أو له ولفروعه ؟. والتحقيق: أن الاسم المطلق يتناولهما وقد يخص الاسم وحده بالاسم مع الاقتران وقد لا يتناول إلا الأصل إذا لم يخص إلا هو ؛ كاسم الشجرة فإنه يتناول الأصل والفرع إذا وجدت ولو قطعت الفروع لكان اسم الشجرة يتناول الأصل وحده وكذلك اسم الحج هو اسم لكل ما يشرع فيه من ركن وواجب ومستحب وهو حج أيضا تام بدون المستحبات وهو حج ناقص بدون الواجبات التي يجبرها دم. والشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفي الإيمان عن العبد لترك مستحب لكن لترك واجب ؛ بحيث ترك ما يجب من كماله وتمامه ؛ لا بانتفاء ما يستحب في ذلك ولفظ الكمال والتمام: قد يراد به الكمال الواجب والكمال المستحب ؛ كما يقول بعض الفقهاء: الغسل ينقسم: إلى كامل ومجزئ فإذا قال النبي صلى الله عليه وسلم {لا إيمان لمن لا أمانة له} و {لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن}. ونحو ذلك كان لانتفاء بعض ما يجب فيه ؛ لا لانتفاء الكمال المستحب. والإيمان يتبعض ويتفاضل الناس فيه: كالحج والصلاة ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: {يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ومثقال شعيرة من إيمان}. وأما إذا استعمل اسم الإيمان مقيدا: كما في قوله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات} وقوله: {الذين آمنوا وكانوا يتقون} وقول النبي صلى الله عليه وسلم: {الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت} ونحو ذلك فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك وإن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: {وملائكته ورسله وجبريل وميكال} وقوله: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم}. وقد يقال: إن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران كلفظ الفقير والمسكين فإن أحدهما إذا أفرد تناول الآخر وإذا جمع بينهما كانا صنفين: كما في آية الصدقة ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين وهي مع جميعه كالبعض مع الكل ومن هذا الموضع نشأ نزاع واشتباه هل الأعمال داخلة في الإيمان أم لا ؟ لكونها عطفت عليه. ومن هذا الباب قد يعطف على الإيمان بعض شعبه العالية أو بعض أنواعه الرفيعة: كاليقين والعلم ونحو ذلك فيشعر العطف بالمغايرة ؛ فيقال هذا: أرفع الإيمان - أي اليقين والعلم أرفع من الإيمان الذي ليس معه هذا اليقين والعلم كما قال الله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}.

ومعلـوم أن النـاس يتفاضـلون في نفس الإيمـان والتصـديق في قوته وضـــــعفه وفي عمومه وخصوصه وفي بقائه ودوامه وفي موجبه ونقيضه وغـــير ذلك من أمـــوره فيخص أحد نوعيه باسم يفضل به على النـــوع الآخر ويبقى اسم الإيمـــان في مثل ذلك متنـاولا للقسم الآخر وكـذلك يفعل في نظـائر ذلك ؛ كما يقـال: الإنسان خـير من الحيـوان والإنسـان خـير من الـدواب وإن كـان الإنسان يدخل في الدواب في قولــه: {إن شر الـدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون}. فإذا عـرف هـذا ؛ فحيث وجد في كلام مقبـول تفضـيل شـيء على الإيمـان فإنما هو تفضـيل نـوع خـاص على عمومه أو تفضـيل بعض شـعبه العالية على غـيره واسم الإيمـان قد يتنـاول النـوعين جميعا وقد يخص أحـدهما كما تقدم وقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة أسمائه.

فصل (ص649)

وأما قول القائل: هل تكون صفة الإيمان نورا يوقعه الله في قلب العبد ويعـــــرف العبد عند وقوعه في قلبه الحق من الباطل ؟ فيقـال لـه: قد قـال الله تعـالى: {الله نـور السـماوات والأرض مثل نـوره كمشـكاة فيها مصـباح} قـال أبي بن كعب وغـيره: مثل نـوره في قلب المـؤمن إلى قولــه: {ومن لم يجعل الله له نـورا فما له من نـور} وقـال تعـالى: {أومن كـان ميتا فأحيينــاه وجعلنا له نــورا يمشي به في النـــاس كمن مثله في الظلمـات} فالإيمـان الـذي يهبه الله لعبـده سـماه نـورا وسـمي الوحي النازل من السماء الذي به يحصل الإيمان {نورا نهدي به من نشـاء من عبادنـا} وقـال تعـالى: {فالـذين آمنـوا به وعـزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنـزل معـه} وأمثـال ذلك ولا ريب أن المؤمن يفرق بين الحق والباطل بل يفرق بين أعظم الحق لكن لا يمكن أن يقال: بأن كل من له إيمان يفـرق بمجـرد ما أعطيه من الإيمان بين كل حق وكل باطل.

فصل (ص650)

وأما قولـه: هل يكون لأول حصوله سبب ؟ فلا ريب أنه يحصل بسـبب مثل اسـتماع القـرآن ومثل رؤية أهل الإيمـان والنظر في أحـوالهم ومثل معرفة أحـوال النـبي صـلى الله عليه وسـلم ومعجزاته والنظر في ذلك ومثل النظر في آيــات الله تعـالى ومثل التفكر في أحـوال الإنسـان نفسه ومثل الضـروريات التي يحدثها الله للعبد التي تضطره إلى الذل لله والاستسلام له

واللجوء إليه وقد يكون هذا سببا لشيء من الإيمان وهذا سببا لشيء آخر ؛ بل كل ما يكون في العالم من الأمور فلا بد له من سبب وسبب الإيمان وشعبه يكون تارة من العبد وتارة من غيره مثل من يقيض له من يدعوه إلى الإيمان ومن يأمره بالخير وينهاه عن الشر ويبين له علامات الدين وحججه وبراهينه وما يعتبره وينزل به ويتعظ به وغير ذلك من الأسباب.

فصل (ص651)

وأما قوله: فالأسباب التي يقوى بها الإيمان إلى أن يكمل على ترتيبها ؟ هل يبدأ بالزهد ؟ أو بالعلم ؟ أو بالعبادة ؟ أم يجمع بين ذلك على حسب طاقته ؟ فيقال: له لا بد من الإيمان الواجب والعبادة الواجبة والزهد الواجب ثم الناس يتفاضلون في الإيمان ؛ كتفاضلهم في شعبه وكل إنسان يطلب ما يمكنه طلبه ويقدم ما يقدر على تقديمه من الفاضل. والناس يتفاضلون في هذا الباب: فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير كما قال تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له وهو في حقه أفضل ولا يطلب ما هو أفضل مطلقا إذا كان متعذرا في حقه أو متعسرا يفوته ما هو أفضل له وأنفع ؛ كمن يقرأ القرآن بالليل فيتدبره وينتفع بتلاوته والصلاة تثقل عليه ولا ينتفع منها بعمل أو ينتفع بالذكر أعظم مما ينتفع بالقراءة. فأي عمل كان له أنفع ولله أطوع أفضل في حقه من تكلف عمل لا يأتي به على وجهه بل على وجه ناقص ويفوته به ما هو أنفع له ؛ ومعلوم أن الصلاة آكد من قراءة القرآن وقراءة القرآن أفضل من الذكر والدعاء ومعلوم أيضا أن الذكر في فعله الخاص: كالركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن في ذلك المحل وأن الذكر والقراءة والدعاء عند طلوع الشمس وغروبها خير من الصلاة. والزهد هو ضد الرغبة وهو كالبغض المخالف للمحبة والكراهة المخالفة للإرادة وكل من الإرادة والكراهة له أقسام في نفسه وفي متعلقه فالزهد (فيه انقسام: إلى المزهود فيه وإلى نفس الزهد. أما الأول: فإن الزهد000(بياض في الأصل) وأما نفس الزهد الذي هو ضد الرغبة وهو الكراهة والبغض

فحقيقة المشروع منه أن يكون كراهة العبد وبغضه وحبه تابعا لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه فيحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى ما يرضاه ويسخط ما يسخطه الله بحيث لا يكون تابعا هواه بل لأمر مولاه فإن كثيرا من الزهاد في الحياة الدنيا أعرضوا عن فضولها ولم يقبلوا على ما يحبه الله ورسوله وليس مثل هذا الزهد يأمر الله به ورسوله ولهذا كان في المشركين زهاد وفي أهل الكتاب زهاد وفي أهل البدع زهاد. ومن الناس من يزهد لطلب الراحة من تعب الدنيا ومنهم من يزهد لمسالمة أهلها والسلامة من أذاهم ومنهم من يزهد في المال لطلب الراحة إلى أمثال هذه الأنواع التي لا يأمر الله بها ولا رسوله وإنما يأمر الله ورسوله أن يزهد فيما لا يحبه الله ورسوله ويرغب فيما يحبه الله ورسوله فيكون زهده هو الإعراض عما لا يأمر الله به ورسوله أمر إيجاب ولا أمر استحباب سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا مستوي الطرفين في حق العبد ويكون مع ذلك مقبلا على ما أمر الله به ورسوله وإلا فترك المكروه بدون فعل المحبوب ليس بمطلوب وإنما المطلوب بالمقصود الأول فعل ما يحبه الله ورسوله وترك المكروه متعين كذلك به تزكو النفس ؛ فإن الحسنات إذا انتفت عنها السيئات زكت فبالزكاة تطيب النفس من الخبائث وتعظم في الطاعات كما أن الزرع إذا أزيل عنه الدغل زكا وظهر وعظم.

فصل (ص653)

وأما طريق الوصول إلى ذلك: فبالاجتهاد في فعل المأمور وترك المحظور والاستعانة به على ذلك ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا. ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان} وفي السنن {أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى على رجل فقال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل}. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم العبد بأن

يحرص على ما ينفعه ويستعين بالله على ذلك والحرص على ما ينفعه هو الاجتهاد في الخير وهو العبادة ؛ فإن كل ما ينفع العبد فهو مــأمور بطلبه وإنما ينهى عن طلب ما يضــره - وإن اعتقد أنه ينفعه - كما يطلب المحرمـات وهي تضـره ويطلب المفضـول الــذي لا ينفعه والله تعــالى أبــاح للمؤمــنين الطيبــات وهي ما ينفعهم وحــرم عليهم الخبــائث وهي ما يضــرهم والله ســبحانه وتعالى أعلم. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسـلم تسـليما كثيرا

قال شيخ الإسلام –طيب الله ثراه-:

فصل (ص655)

وأما الإيمان: هل هو مخلوق أو غير مخلـوق ؟. فـالجواب أن هــذه المســألة نشأ الــنزاع فيها لما ظهــرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين وقد جرت فيها أمـور يطـول وصـفها هنا لكن لما ظهر القــول بــأن القــرآن كلام الله غــير مخلــوق وأطفأ الله نـار الجهمية المعطلة صـارت طائفة يقولـون إن كلام الله الذي أنزله مخلوق ويعبرون عن ذلك باللفظ فصاروا يقولون ألفاظنا بــــــالقرآن مخلوقة أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم بل يــدخلون في كلامهم نفس كلام الله الـذي نقـرأ بأصـواتنا وحركاتنا وعارضـهم طائفة أخـرى فقــالوا: ألفاظنا بــالقرآن غــير مخلوقة فــرد الإمــام أحمد على الطائفتين وقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قـال: غـير مخلـوق فهو مبتـدع. وتكلم النـاس حينئذ في الإيمـان فقالت طائفة: الإيمان مخلـوق وأدرجـوا في ذلك ما تكلم الله به من الإيمان مثـل: قـول لا إله إلا الله فصـار مقتضى قولــهم أن نفس هذه الكلمة مخلوقة ولم يتكلم الله بها فبـدع الإمـام أحمد هـؤلاء وقـال: قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم {الإيمـان بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله} أفيكـون قـول لا إله إلا الله مخلوقــا. ومــراده أن من قــال: هي مخلوقة مطلقا كــان مقتضى قولـه إن الله لم يتكلم بهــذه الكلمة كما أن من قــال: إن ألفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقــرآن مخلوقة كــان مقتضى كلامه أن الله لم يتكلم بـالقرآن الـذي أنزله وأن القـرآن المـنزل ليس هو كلام الله وأن يكون جبريل نـزل بمخلـوق ليس هو كلام الله والمســلمون يقــرءون قرآنا مخلوقا ليس هو كلام الله وقد علم بالاضطرار من دين الإسـلام أن القـرآن الـذي يقـرؤه المسـلمون

كلام الله تعالى وإن كان مسموعا من المبلغ عنه فإن الكلام قد سمع من المتكلم به كما سمعه موسى بلا واسطة وهذا سماع مطلق - كما يرى الشيء رؤية مطلقة وقد يسمعه من المبلغ عنه فيكون قد سمعه سمعا مقيدا - كما يرى الشيء في الماء والمرآة رؤية مقيدة لا مطلقة أو كما قال تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} كان معلوما عند جميع من خوطب بالقرآن أنه يسمع سماعا مقيدا من المبلغ ليس المراد به أنه يسمع من الله. ومن هؤلاء من قال: إنه يسمع صوت القارئ من الله ثم من هؤلاء من يقول: إن صوت الرب حل في العبد ومنهم من يقول ظهر فيه - ولم يحل فيه ومنهم من يقول لا أقول ظهر ولا حل ومنهم من قال الصوت المسموع غير مخلوق أو قديم ومنهم من يقول يسمع منه صوتان: مخلوق وغير مخلوق. ومن القائلين بأنه مسموع من الله من يقول: بأنه يسمع المعنى القديم القائم بذات الرب مع سماع الصوت المحدث ؛ قال هؤلاء يسمع القديم والمحدث كما قال أولئك يسمع صوتين قديما ومحدثا ؛ وطائفة أخرى قالت: لم يسمع الناس كلام الله ؛ لا من الله ولا من غيره ؛ قالوا: لأن الكلام لا يسمع إلا من المتكلم ؛ ثم من هؤلاء من قال: تسمع حكايته ومنهم من قال: تسمع عبارته لا حكايته ؛ ومن القائلين بأنه مخلوق من قال: يسمع شيئان: الكلام المخلوق ؛ والذي خلقه ؛ والصوت الذي للعبد. وهذه الأقوال كلها مبتدعة مخترعة لم يقل السلف شيئا منها ؛ وكلها باطلة شرعا وعقلا ولكن ألجأ أصحابها إليها اشتراك في الألفاظ ؛ واشتباه في المعاني ؛ فإنه إذا قيل سمعت كلام زيد أو قيل هذا كلام زيد فإن هذا يقال: على كلامه الذي تكلم به بلفظه ومعناه سواء كان مسموعا منه أو من المبلغ عنه مع العلم بالفرق بين الحالين وأنه إذا سمع منه سمع بصوته وإذا سمع من غيره سمع بصوت ذلك المبلغ لا بصوت المتكلم وإن كان اللفظ لفظ المتكلم وقد يقال مع القرينة هذا كلام فلان وإن ترجم عنه بلفظ آخر كما يحكي الله كلام من يحكي قوله من الأمم باللسان العربي وإن كانوا إنما قالوه بلفظ عبري أو سرياني أو قبطي أو غير ذلك وهذه الأمور مبسوطة في مواضع أخر. و (المقصود) هنا أنه نشأ بين أهل السنة والحديث النزاع في " مسألتي: القرآن والإيمان " بسبب ألفاظ مجملة ومعاني متشابهة وطائفة من أهل العلم والسنة: كالبخاري صاحب الصحيح ومحمد بن نصر المروزي وغيرهما قالوا: الإيمان مخلوق ؛ وليس مرادهم شيئا من صفات الله. وإنما مرادهم بذلك أفعال العباد وقد اتفق أئمة المسلمين على أن

أفعـال العبـاد مخلوقة وقـال يحـيى بن سـعيد القطـان: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعـال العبـاد مخلوقـة. وصـار بعض النـاس يظن أن البخاري وهـؤلاء خـالفوا أحمد بن حنبل وغـيره من أئمة السنة وجرت للبخاري محنة بسبب ذلك حتي زعم بعض الكذابين أن البخـاري لما مـات أمر أحمد بن حنبل ألا يصـلى عليه وهـذا كـذب ظـاهر فـإن أبا عبد الله البخـاري - رحمه الله - مـات بعد أحمد بن حنبل بنحو خمس عشـرة سـنة فـإن أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - تــوفي ســنة إحــدى وأربعين ومــائتين وتــوفي البخاري سنة ست وخمسين ومـائتين وكـان أحمد بن حنبل يحب البخاري ويجله ويعظمه وأما تعظيم البخـاري وأمثاله للإمـام أحمد فهو أمر مشهور ولما صنف البخاري كتابه في خلق أفعال العباد وذكر في آخر الكتـاب أبوابا في هـذا المعـنى ؛ ذكر أن كلا من الطائفتين القائلين: بأن لفظنا بالقرآن مخلـوق والقـائلين بأنه غـير مخلـوق ينسـبون إلى الإمـام أحمد بن حنبل ويـدعون أنهم على قولـه وكلا الطـــائفتين لم تفهم دقة كلام أحمد - رضي الله عنه -. وطائفة أخــرى: كـأبي الحسن الأشـعري والقاضي أبي بكر بن الطيب والقاضي أبي يعلى وغـــيرهم ممن يقولـــون إنهم على اعتقــاد أحمد بن حنبل وأئمة أهل السـنة والحـديث قـالوا: أحمد وغيره كرهوا أن يقـال: لفظي بـالقرآن ؛ فـإن اللفظ هو الطـرح والنبذ وطائفة أخـرى كـأبي محمد بن حـزم وغـيره ممن يقـول أيضـا: إنه متبع لأحمد بن حنبل وغـيره من أئمة السـنة إلى غـير هؤلاء ممن ينتسب إلى السنة ومذهب الحديث يقولون إنهم على اعتقــاد أحمد بن حنبل ونحــوه من أهل السـنة وهم لم يعرفــوا حقيقة ما كان يقولـه أئمة السـنة ؛ كأحمد بن حنبل وأمثاله وقد بسطنا أقوال السلف والأئمة: أحمد بن حنبل وغيره في غير هـذا الموضع. وأما البخاري وأمثاله فإن هؤلاء من أعرف النـاس بقـول أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ؛ وقد رأيت طائفة تنتسب إلى السـنة والحـديث: كـأبي نصر السـجزي وأمثاله ممن يـردون على أبي عبد الله البخـــاري يقولـــون. إن أحمد بن حنبل كـــان يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق ؛ وذكروا روايـات كاذبة لا ريب فيها ؛ والمتـواتر عن أحمد بن حنبل من رواية بنيـه: صـالح وعبد الله وحنبل والمـروذي ؛ وفـوزان ومن لا يحصي عـددهم إلا الله تبين أن أحمد كـان ينكر على هـؤلاء وهـؤلاء وقد صـنف أبو بكر المـروذي في ذلك مصـنفا ذكر فيه قـول أحمد بن حنبل وغـيره من أئمة العلم ؛ وقد ذكر ذلك الخلال - في كتـــاب " الســـنة " وذكر بعضه أبو عبد الله بن بطة في كتـــاب " الإبانة " وقد ذكر كثـيرا من ذلك أبو عبد الله بن منـده فيما صـنفه في " مسـألة

اللفظ ". وقال أبو محمد بن قتيبة الدينوري: لم يختلف أهل الحديث في شيء من اعتقادهم إلا في مسألة اللفظ ؛ ثم ذكر ابن قتيبة: أن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظا ؛ ويراد به نفس الكلام الذي هو فعل العبد وصوته وهو مخلوق وأما نفس كلام الله الذي يتكلم به العباد فليس مخلوقا وكذلك " مسألة الإيمان " لم يقل قط أحمد بن حنبل أن الإيمان غير مخلوق ؛ ولا قال أحمد ولا غيره من السلف أن القرآن قديم ؛ وإنما قالوا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ولا قال أحمد بن حنبل ولا أحد من السلف أن شيئا من صفات العبد وأفعاله غير مخلوقة ولا صوته بالقرآن ولا لفظه بالقرآن ؛ ولا إيمانه ولا صلاته ولا شيء من ذلك. لكن المتأخرون انقسموا في هذا الباب انقساما كثيرا ؛ فالذين كانوا يقولون لفظنا بالقرآن غير مخلوق ؛ منهم من أطلق القول بأن الإيمان غير مخلوق ومنهم من يقول قديم في هذا وهذا ؛ ومنهم من يفرق بين الأقوال الإيمانية والأفعال فيقولون: الأقوال غير مخلوقة وقديمة ؛ وأفعال الإيمان مخلوقة ؛ ومنهم من يقول في أفعال الإيمان إن المحرم منها مخلوق وأما الطاعات كالصلاة وغيرها فمنهم من يقول: هي غير مخلوقة ؛ ومنهم من يمسك فلا يقول: هي مخلوقة ولا غير مخلوقة ومنهم من يمسك عن الأفعال المحرمة ومنهم من يقول: بل أفعال العباد كلها غير مخلوقة أو قديمة ؛ ويقول ليس مرادي بالأفعال الحركات ؛ بل مرادي الثواب الذي يجيء يوم القيامة ويحتج هذا بأن القدر غير مخلوق والشرع غير مخلوق. ويجعل أفعال العباد هي: القدر والشرع ولا يفرق بين القدر والمقدور والشرع والمشروع ؛ فإن الشرع الذي هو أمر الله ونهيه غير مخلوق وأما الأفعال المأمور بها والمنهي عنها فلا ريب أنها مخلوقة ؛ وكذلك القدر الذي هو علمه ومشيئته وكلامه غير مخلوق وأما المقدرات: الآجال والأرزاق والأعمال فكلها مخلوقة وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وقائليها في غير هذا الموضع. والمقصود هنا أن الإمام أحمد ومن قبله من أئمة السنة ومن اتبعه كلهم بريئون من الأقوال المبتدعة المخالفة للشرع والعقل ولم يقل أحد منهم أن القرآن قديم لا معنى قائم بالذات ولا إنه تكلم به في القديم بحرف وصوت ولا تكلم به في القديم بحرف قديم ؛ لم يقل أحد منهم لا هذا ولا هذا وإن الذي اتفقوا عليه أن كلام الله منزل غير مخلوق والله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء وكلامه لا نهاية له. كما قال الله تعالى: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي} وهو قديم بمعنى: أنه لم يزل الله متكلما بمشيئته

؛ لا بمعنى أن الصوت المعين قديم كما بسطت الكلام في غـير هذا الموضع على اختلاف أهل الأرض في كلام الله تعـالى: منهم من يجعله فيضا من العقل الفعـال على النفـوس. كقـول طائفة من الصـابئة والفلاسـفة وهو أفسد الأقـوال ومنهم من يقـول هو مخلوق خلقه بائنا عنه: كقـول الجهمية والنجارية والمعتزلة ومنهم من يقـــول هو معـــنى قـــديم قـــائم بالـــذات: كقـــول ابن كلاب والأشعري ومنهم من يقول هو حروف وأصوات: كقول ابن سـالم وطائفة ومنهم من يقول تكلم بعد أن لم يكن متكلما: كقول ابن كرام وطائفة. والصواب من هـذه الأقـوال قـول السـلف والأئمـة: كما قد بسـطت ألفـاظهم في غـير هـذا الموضـع. ولما ظهـرت المحنة كان أهل السنة يقولون: كلام الله غـير مخلـوق. وكـانت " الجهمية " من المعتزلة وغـيرهم. يقولـون: إنه مخلـوق وكـان أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان له فضيلة ومعرفة رد بها على الجهمية والمعتزلة نفـــاة الصـــفات وبين أن الله نفسه فـــوق العـــرش ؛ وبسط الكلام في ذلك ولم يتخلص من شـــبهة الجهمية كل التخلص ؛ بل ظن أن الـــــرب لا يتصف بـــــالأمور الاختيارية التي تتعلق بقدرته ومشـيئته فلا يتكلم بمشـيئته وقدرته ولا يحب العبد ويرضى عنه بعد إيمانه وطاعته ولا يغضب عليه ويسخط بعد كفره ومعصيته ؛ بل محبا راضيا أو غضبان سـاخطا على من علم أنه يمـــوت مؤمنا أو كـــافرا. ولا يتكلم بكلام بعد كلام وقد قـال تعـالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تـراب ثم قـال له كن فيكـون} وقـال تعـالى: {قل إن كنتم تحبـون الله فـاتبعوني يحببكم اللـه} وقـال تعـالى: {فلما آسـفونا انتقمنا منهم} وقـال تعـالى: {ذلك بـأنهم اتبعـوا ما أسـخط الله وكرهـوا رضـوانه فأحبط أعمـالهم} وقـال تعـالى: {هو الـذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم اسـتوى على العـرش} وهـذا أصل كبـير قد بسط الكلام عليه في غـير هـذا الموضـع. وإنما المقصود هنا التنبيه على مآخذ اختلاف المسلمين في مثل " هذه المسـائل " وإذا عـرف ذلك فـالواجب أن نثبت ما أثبته الكتـاب والسنة وننفي ما نفى الكتـاب والسـنة. واللفظ المجمل الـذي لم يرد في الكتاب والسنة لا يطلق في النفي والإثبـات حـتى يتـبين المراد به كما إذا قال القائل: الرب متحيز أو غـير متحـيز أو هو في جهة أو ليس في جهة قيل هذه الألفـاظ مجملة لم يـرد بها الكتـــاب والســـنة لا نفيا ولا إثباتا ولم ينطق أحد من الصـــحابة والتابعين لهم بإحسان بإثباتها ولا نفيهـا. فـإن كـان مـرادك بقولك إنه يحيط به شـــيء من المخلوقـــات ؛ وليس هو بقدرته يحمل العـرش وحملته وليس هو العلي الأعلى الكبـير العظيم الـذي لا

تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو سبحانه أكبر من كل شيء فليس هو متحيزا بهذا الاعتبار وإن كان مرادك أنه بائن عن مخلوقاته عال عليها فوق سمواته على عرشه ؛ فهو سبحانه بائن من خلقه كما ذكر ذلك أئمة السنة مثل: عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أعلام الإسلام وكما دل على ذلك صحيح المنقول وصريح المعقول كما هو مبسوط في مواضع أخر. وكذلك لفظ " الجهة " إن أراد بالجهة أمرا موجودا يحيط بالخالق أو يفتقر إليه فكل موجود سوى الله فهو مخلوق. والله خالق كل شيء وكل ما سواه فهو فقير إليه وهو غني عما سواه وإن كان مراده أن الله سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه فهذا صحيح. سواء عبر عنه بلفظ الجهة أو بغير لفظ الجهة. وكذلك لفظ " الجبر " إذا قال: هل العبد مجبور أو غير مجبور ؟ قيل: إن أراد بالجبر أنه ليس له مشيئة ؛ أو ليس له قدرة ؛ أو ليس له فعل ؛ فهذا باطل فإن العبد فاعل لأفعاله الاختيارية وهو يفعلها بقدرته ومشيئته وإن أراد بالجبر أنه خالق مشيئته وقدرته وفعله فإن الله تعالى خالق ذلك كله. وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق ؟ قيل له: ما تريد " بالإيمان " ؟ أتريد به شيئا من صفات الله وكلامه كقوله (لا إله إلا الله و " إيمانه " الذي دل عليه اسمه المؤمن فهو غير مخلوق أو تريد شيئا من أفعال العباد وصفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون وجميع أفعالهم وصفاتهم مخلوقة ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة ولا يقول هذا من يتصور ما يقول فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء وأمثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فصل فيها الخطاب ظهر الخطأ من الصواب. والواجب على الخلق أن ما أثبته الكتاب والسنة أثبتوه وما نفاه الكتاب والسنة نفوه وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا بنفي ولا إثبات استفصلوا فيه قول القائل ؛ فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله فقد أصاب ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب ومن أثبت ما نفاه الله أو نفى ما أثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل فيجب أن يفصل ما في كلامه من حق وباطل فيتبع الحق ويترك الباطل وكلما خالف الكتاب والسنة فإنه مخالف أيضا لصريح المعقول فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضا ولكن كثير من الناس يظن تناقض ذلك وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب {وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي

شقاق بعيد} ونسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-

فصل (ص666)

الاستثناء في الإيمان سنة عند أصحابنا وأكثر أهل السنة وقالت المرجئة والمعتزلة: لا يجوز الاستثناء فيه بل هو شك ؛ و " الاستثناء أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله أو مؤمن أرجو أو آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله أو إن كنت تريد الإيمان الذي يعصم دمي فنعم وإن كنت تريد {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} فالله أعلم. ثم هنا " ثلاثة أقوال " إما أن يقال: الاستثناء واجب فلا يجوز القطع وهذا قول القاضي في عيون المسائل وغيره وإما أن يقال: هو مستحب ويجوز القطع باعتبار آخر وإما أن يقال: كلاهما جائز باعتبار وإنما ذكر أن الاستثناء سنة بمعنى أنه جائز ردا على من نهى عنه فإذا قلنا هو واجب فمأخذ القاضي أنه لو جاز القطع على أنا مؤمنون لكان ذلك قطعا على أنا في الجنة لأن الله وعد المؤمنين الجنة ولا يجوز القطع على الوعد بالجنة لأن من شرط ذلك الموافاة بالإيمان ولا يعلم ذلك إلا الله وكذلك الإيمان إنما يحصل بالموافاة ولا يعلم ذلك. ولهذا قال ابن مسعود: هلا وكل الأولى كما وكل الآخرة. يريد بذلك ما استدل به من أن رجلا قال عنده: إني مؤمن فقيل لابن مسعود هذا يزعم أنه مؤمن قال: فسلوه أفي الجنة هو أو في النار ؟ فسألوه فقال: الله أعلم فقال عبد الله: فهلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية. " قلت ": ويستدل أيضا على وجوب الاستثناء بقول عمر: من قال إنه مؤمن فهو كافر ومن زعم أنه في الجنة فهو في النار ومن زعم أنه عالم فهو جاهل ولما استدل المنازع بأن الاستثناء إنما يحتاج إليه لمستقبل يشك في وقوعه قال: الجواب إن هنا مستقبلا يشك في وقوعه وهو الموافاة بالإيمان ؛ والإيمان مرتبط بعضه ببعض فهو كالعبادة الواحدة. " قلت ": فحقيقة هذا القول أن الإيمان اسم للعبادة من أول الدخول فيه إلى أن يموت عليه فإذا انتقض تبين بطلان أولها كالحدث في آخر الصلاة والوطء في آخر الحج والأكل في آخر النهار ؛ وقول مؤمن عند الإطلاق يقتضي فعل الإيمان كله كقول مصل وصائم وحاج ؛ فهذا مأخذ القاضي. وقد ذكر بعدها في المعتمد " مسألة

الموافـاة " وهي متصـلة بها وهو أن المـؤمن الـذي علم الله أنه يموت كـافرا ؛ وبـالعكس ؛ هل يتعلق رضا الله وسـخطه ومحبته وبغضه بما هو عليه أو بما يـوافي بـه. والمسـألة متعلقة بالرضا والسـخط: هل هو قـديم أو محـدث ؟ و " المأخذ الثـاني ": أن الاسم عند الإطلاق يقتضي الكمـال ؛ وهـذا غـير معلـوم للمتكلم كما قال أبو العالية: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفـاق على نفسه لا يقـول إن إيمـاني كإيمـان جبريل فإخبـار الرجل عن نفسه أنه كامل الإيمان خبر بما لا يعلمه وهذا معـنى قـول ابن المـنزل: أن المرجئة تقـول إن حسـناتها مقبولة وأنا لا أشـهد بـذلك وهـذا مأخذ يصـلح لوجـوب الاسـتثناء وهـذا المأخذ الثاني للقاضي فـإن المنـازع احتج بأنه لما لم يجز الاسـتثناء في الإسـلام فكـذلك في الإيمـان. قـال: والجـواب أن الإسـلام مجـرد الشهادتين وقد أتى بهما والإيمان أقوال وأعمـال لقولـه {الإيمـان بضع وسبعون بابـا} وهو لا يتحقق كل ذلك منـه. " المأخذ الثـالث ": أن ذلك تزكية للنفس وقد قال الله: {فلا تزكوا أنفسكم} وهذا يصلح للاستحباب وإلا فإخبـار الرجل بصـفته الـتي هو عليها جـائز وإن كانت مدحا وقد يصلح للإيجاب قـال الأثـرم في " السـنة ": حـدثنا أحمد بن حنبل سـمعت يحـيى بن سـعيد يقـول: ما أدركت أحدا من أصحابنا ولا بلغني إلا على الاستثناء قال الأثرم سـمعت أبا عبد الله يسـأل عن الاسـتثناء في الإيمـان ما تقـول فيه ؟ قال: أما أنا فلا أعيبه000(سقط من الأصل مقـدار نصف سـطر) فأسـتثني مخافة واحتياطا ليس كما يقولـون على الشك إنما يسـتثنى للعمل قـال أبو عبد اللـه: قـال اللـه: {لتـدخلن المسـجد الحرام إن شاء اللـه} أي إن هـذا الاسـتثناء لغـير شك وقد قـال النبي صلى الله عليه وسلم {وإنا إن شاء الله بكم لاحقون} أي لم يكن يشك في هذا وقد استثنى وذكر قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم {نبعث إن شـاء الله من القـبر} وذكر قـول النـبي صلى الله عليه وسلم: {إني والله لأرجو أن أكون أخشاكم للـه} قـال هـذا كله تقوية للاسـتثناء في الإيمـان. قلت لأبي عبد اللـه: فكأنك لا تـرى بأسا أن لا يسـتثنى فقـال إذا كـان ممن يقـول: الإيمـان قـول وعمل يزيد وينقص فهو أسـهل عنـدي ثم قـال أبو عبد الله إن قوما تضـعف قلـوبهم عن الاسـتثناء فتعجب منهم وذكر كلاما طويلا تركته. فكلام أحمد يدل على أن الاستثناء لأجل العمل وهـذا " المأخذ الثـاني " وأنه لغـير شك في الأصل وهو يشـبه " الثـالث " ويقتضي أن يجـوز تـرك الاسـتثناء وأما جـواز إطلاق القـول بـأني مـؤمن فيصح إذا عـنى أصل الإيمـان دون كماله والـدخول فيه دون تمامه كما يقـول: أنا حـاج وصـائم لمن

شــرع في ذلك وكما يطلقه في قولـه آمنت بالله ورســله وفي قولـه: إن كنت تعـني كـذا وكـذا أن جـواز إخبـاره بالفعل يقتضي جــواز إخبـاره بالاسم مع القرينة وعلى هــذا يخــرج ما روي عن صاحب معاذ بن جبل وما روي في حديث الحـارث الـذي قـال " أنا مؤمن حقا " وفي حديث الوفد الـذين قـالوا: " نحن المؤمنـون " وإن كان في الإسنادين نظر.

(ص670)سـئل عن معــنى حــديث النــبي صــلى الله عليه وسلم: {إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة فإذا خـرج من ذلك العمل عـاد إليه الإيمـان} رواه الترمـذي وأبو داود. وهل يكــون الــزاني في حالة الزنا مؤمنا أو غــير مــؤمن ؟ وهل حمل الحـديث على ظـاهره أحد من الأئمة أو أجمعـوا على تأويله ؟

فأجاب: الحمد لله: الناس في الفاسق من أهل الملة مثل الزاني والسارق والشارب ونحوهم " ثلاثة أقسام ": طرفين ووسط. (أحد الطــرفين): أنه ليس بمــؤمن بوجه من الوجــوه ولا يــدخل في عموم الأحكام المتعلقة باسم الإيمان ثم من هؤلاء من يقول: هو كافر: كاليهودي والنصراني، وهو قـول الخـوارج ومنهم من يقـول: ننزله منزلة بين المنزلـــــــتين ؛ وهي منزلة الفاسق وليس هو بمـؤمن ولا كـافر وهم المعتزلة وهـؤلاء يقولـون: إن أهل الكبـائر يخلـدون في النـار وإن أحـدا منهم لا يخـرج منها ؛ وهـذا من " مقالات أهل البـدع " الـتي دل الكتـاب والسـنة وإجمـاع الصـحابة والتابعين لهم بإحسان على خلافها قال الله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمــنين اقتتلــوا فأصــلحوا بينهمــا} - إلى قولـه - {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخـويكم} فسـماهم مؤمـنين وجعلهم إخــوة مع الاقتتـال وبغي بعضـهم على بعض وقـال الله تعـالى: {فتحرير رقبة مؤمنة} ولو أعتق مذنبا أجزأ عتقه بإجماع العلماء. ولهذا يقول علماء السلف في المقدمات الاعتقادية: لا نكفر أحــدا من أهل القبلة بــذنب ولا نخرجه من الإســلام بعمل وقد ثبت الزنا والسـرقة وشـرب الخمر على أنـاس في عهد النـبي صـلى الله عليه وسلم ولم يحكم فيهم حكم من كفر ولا قطع الموالاة بينهم وبين المســلمين بل جلد هــذا وقطع هــذا وهو في ذلك يســتغفر لهم ويقــول: لا تكونــوا أعــوان الشــيطان على أخيكم وأحكـام الإسـلام كلها مرتبة على هـذا الأصـل. (الطـرف الثـاني): قول من يقول: إيمـانهم بـاق كما كـان لم ينقص " بنـاء على أن الإيمان هو مجرد التصديق والاعتقـاد الجـازم وهو لم يتغـير وإنما نقصت شرائع الإسـلام وهـذا قـول المرجئة والجهمية ومن سـلك

سبيلهم وهو أيضا قول مخالف للكتاب والسنة وإجماع السابقين والتابعين لهم بإحسان. قال الله تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} وقال: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} - إلى قوله - {أولئك هم المؤمنون حقا} وقال: {فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله} وقال: {ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم} وقال: {فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون}. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق} {وقال لوفد عبد القيس: آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن تؤدوا خمس ما غنمتم}. وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب ثم قول اللسان وعمل الجوارح. فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم الناس في هذا على أقسام: منهم من صدق به جملة ولم يعرف التفصيل ومنهم من صدق جملة وتفصيلا ثم منهم من يدوم استحضاره وذكره لهذا التصديق ومنهم من يغفل عنه ويذهل ومنهم من استبصر فيه بما قذف الله في قلبه من النور والإيمان ومنهم من جزم به لدليل قد تعترض فيه شبهة أو تقليد جازم وهذا التصديق يتبعه عمل القلب وهو حب الله ورسوله وتعظيم الله ورسوله وتعزير الرسول وتوقيره وخشية الله والإنابة إليه والإخلاص له والتوكل عليه إلى غير ذلك من الأحوال فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة للمعلول. ويتبع الاعتقاد قول اللسان ويتبع عمل القلب الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك. وعند هذا فالقول الوسط الذي هو قول أهل السنة والجماعة أنهم لا يسلبون الاسم على الإطلاق ولا يعطونه على الإطلاق. فنقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ويقال: ليس بمؤمن حقا أو ليس بصادق الإيمان. وكل كلام أطلق في الكتاب والسنة فلا بد أن يقترن به ما يبين المراد منه. والأحكام منها ما يترتب على أصل الإيمان فقط ؛ كجواز العتق في الكفارة وكالموالاة والموارثة ونحو ذلك ومنها ما يترتب على أصله وفرعه: كاستحقاق الحمد والثواب وغفران السيئات ونحو ذلك. إذا عرفت " هذه القاعدة ". فالذي في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: {لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن

ولا يشـرب الخمر حين يشـربها وهو مـؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شـرف يرفع النـاس إليه أبصـارهم فيها حين ينتهبها وهو مـؤمن} والزيـادة الـتي رواها أبو داود والترمـذي صـحيحة وهي مفسـرة للرواية المشهورة. فقول السـائل: هل حمل الحـديث على ظـاهره أحد من الأئمة ؟ لفظ مشترك ؛ فإن عنى بذلك أن ظـاهره أن الزاني يصير كافرا وأنه يسلب الإيمان بالكلية فلم يحمل الحديث على هـذا أحد من الأئمة ولا هو أيضا ظـاهر الحـديث لأن قولـه {خــرج منه الإيمــان فكــان فــوق رأسه كالظلــة} دليل على أن الإيمـان لا يفارقه بالكلية فـإن الظلة تظلل صـاحبها وهي متعلقة ومرتبطة به نـوع ارتبـاط. وأما إن عـنى بظـاهره ما هو المفهـوم منه كما سنفسره إن شاء الله فنعم ؛ فإن عامة علماء السـلف يقـرون هـذه الأحـاديث ويمرونها كما جـاءت ويكرهـون أن تتـأول تأويلات تخرجها عن مقصـود رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وقد نقل كراهة تأويل أحــاديث الوعيــد: عن ســفيان. وأحمد بن حنبل - رضي الله عنهم - وجماعة كثـيرة من العلمـاء ونص أحمد على أن مثل هــذا الحـديث لا يتـأول تـأويلا يخرجه عن ظـاهره المقصـود به وقد تأوله الخطـابي وغـيره تـأويلات مسـتكرهة مثل قولــهم لفظه لفظ الخــبر ومعنــاه النهي: أي ينبغي للمــؤمن ألا يفعل ذلك وقولـهم: المقصود به الوعيد والزجر دون حقيقة النفي وإنما ســاغ ذلك لما بين حاله وحــال من عــدم الإيمــان من المشابهة والمقاربة وقولــهم: إنما عـدم كمـال الإيمـان وتمامه أو شــرائعه وثمراته ونحو ذلك وكل هــذه التــأويلات لا يخفى حالها على من أمعن النظـر. فـالحق أن يقـال: نفس التصـديق المفـرق بينه وبين الكافر لم يعدمه لكن هذا التصـديق لو بقي على حاله لكان صاحبه مصدقا بأن الله حرم هـذه الكبـيرة وأنه توعد عليها بالعقوبة العظيمة وأنه يــرى الفاعل ويشــاهده ؛ وهو ســبحانه وتعالى مع عظمته وجلاله وعلوه وكبريائه يمقت هـذا الفاعل فلو تصور هذا حق التصور لامتنع صـدور الفعل منه ومـتى فعل هـذه الخطيئة فلا بد من أحد " ثلاثة أشياء ". إما اضـطراب العقيـدة ؛ بأن يعتقد بأن الوعيد ليس ظـاهره كباطنه وإنما مقصـوده الزجر كما تقولــه: المرجئــة. أو أن هــذا إنما يحــرم على العامة دون الخاصة كما يقولـه الإباحية أو نحو ذلك من العقائد الـتي تخــرج عن الملة. وإما الغفلة والذهول عن التحريم وعظمة الرب وشدة بأســه. وإما فــرط الشــهوة بحيث يقهر مقتضى الإيمــان ويمنعه موجبه بحيث يصـير الاعتقـاد مغمـورا مقهـورا كالعقل في النـائم والسكران وكـالروح في النـائم. ومعلـوم أن " الإيمـان " الـذي هو الإيمان ليس باقيا كما كان ؛ إذ ليس مستقرا ظـاهرا في القلب

واسم المــؤمن عند الإطلاق إنما ينصــرف إلى من يكــون إيمانه باقيا على حاله عــاملا عمله وهو يشــبه من بعض الوجــوه روح النـائم ؛ فإنه سبحانه: يتـوفى الأنفس حين موتها والـتي لم تمت في منامها ؛ فالنـــــائم ميت من وجه حي من وجه وكــــــذلك الســــكران والمغمى عليه عاقل من وجه وليس بعاقل من وجه فإذا قال قائـل: السـكران ليس بعاقل فـإذا صـحا عـاد عقله إليه كـان صـادقا مع العلم بأنه ليس بمنزلة البهيمة إذ عقله مسـتور وعقل البهيمة معـدوم ؛ بل الغضـبان ينتهي به الغضب إلى حـال يعـــزب فيها عقله ورأيه وفي الأثر {إذا أراد الله نفـــاذ قضـــائه وقدره سلب ذوي العقول عقولــهم فـإذا أنفذ قضـاءه. وقـدره رد عليهم عقولـــهم ليعتــبروا} فالعقل الــذي به يكــون التكليف لم يسلب وإنما سلب العقل الذي به يكون صـلاح الأمـور في الـدنيا والآخــرة. كـذلك الـزاني والسـارق والشـارب والمنتهب لم يعـدم الإيمــان الــذي به يســتحق ألا يخلد في النـــار وبه تـــرجى له الشـفاعة والمغفـرة وبه يسـتحق المناكحة والموارثة لكن عــدم الإيمان الذي به يسـتحق النجـاة من العـذاب ويسـتحق به تكفـير السيئات وقبول الطاعـات وكرامة الله ومثوبته ؛ وبه يسـتحق أن يكون محمودا مرضيا. وهذا يـبين أن الحـديث على ظـاهره الـذي يليق به. والله أعلم.

(ص677) سئل رحمه الله: عن معـنى قولـه صـلى الله عليه وسلم: {لا يدخل الجنة من كـان في قلبه مثقـال ذرة من كـبر} هل هـذا الحـديث مخصـوص بـالمؤمنين أم بالكفـار ؟ فـإن قلنا مخصوص بالمؤمنين فقولنا ليس بشـيء ؛ لأن المؤمـنين يـدخلون الجنة بالإيمان. وإن قلنا مخصوص بالكافرين فما فائدة الحديث ؟ فأجاب: لفظ الحديث في الصـحيح: {لا يـدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقـال ذرة من إيمـان} فـالكبر المبـاين للإيمـان لا يـدخل صـاحبه الجنة كما في قولــه: {إن الــذين يســتكبرون عن عبــادتي ســيدخلون جهنم داخرين} ومن هذا كـبر إبليس وكـبر فرعـون وغيرهما ممن كـان كبره منافيا للإيمـان وكـذلك كـبر اليهـود والـذين أخـبر الله عنهم بقولــه: {أفكلما جـاءكم رسـول بما لا تهـوى أنفسـكم اسـتكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون}. والكبر كله مبـاين للإيمـان الـواجب فمن في قلبه مثقــال ذرة من كـبر لا يفعل ما أوجب الله عليه ويــترك ما حــرم عليه بل كــبره يــوجب له جحد الحق واحتقــار الخلق وهـذا هو " الكـبر " الـذي فسـره النـبي صـلى الله عليه وسلم حيث سئل في تمام الحديث. {فقيل: يا رسول الله الرجل

يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا. فمن الكبر ذاك ؟ فقــال: لا إن الله جميل يحب الجمـال الكـبر بطر الحق وغمط النـاس} وبطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس ازدراؤهم واحتقارهم فمن في قلبه مثقــال ذرة من هــذا يــوجب له أن يجحد الحق الــذي يجب عليه أن يقر به وأن يحتقر النـــــاس فيكـــــون ظالما لهم معتديا عليهم فمن كان مضيعا للحق الواجب ؛ ظالما للخلــق. لم يكن من أهل الجنة ولا مستحقا لها ؛ بل يكون من أهل الوعيد. فقولـــــه: {لا يـــدخل الجنـــة} متضـــمن لكونه ليس من أهلها ولا مسـتحقا لها لكن إن تـاب أو كـانت له حسـنات ماحية لذنبه أو ابتلاه الله بمصــائب كفر بها خطايــاه ونحو ذلك زال ثمــرة هــذا الكـــبر المـــانع له من الجنة ؛ فيـــدخلها أو غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكــبر من نفسه ؛ فلا يــدخلها ومعه شــيء من الكبر ولهذا قال: من قال في هذا الحديث وغـيره: إن المنفي هو الدخول المطلق الــذي لا يكــون معه عــذاب ؛ لا الــدخول المقيد الذي يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة ؛ فإنه إذا أطلق في الحديث فلان في الجنة أو فلان من أهل الجنة كان المفهوم أنه يدخل الجنة ولا يـدخل النـار. فـإذا تـبين هـذا كـان معنـاه أن من كــان في قلبه مثقــال ذرة من كــبر ليس هو من أهل الجنة ولا يــدخلها بلا عــذاب بل هو مسـتحق للعـذاب لكـبره كما يسـتحقها غــيره من أهل الكبــائر ولكن قد يعــذب في النــار ما شــاء الله فإنه لا يخلد في النـــار أحد من أهل التوحيد وهـــذا كقولـــه: {لا يدخل الجنة قاطع رحم} وقولــه: {لا تـدخلون الجنة حـتى تؤمنـوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتمــوه تحــاببتم ؟ أفشــوا الســلام بينكم} وأمثــال هــذا من أحــاديث الوعيد وعلى هذا فالحديث عام في الكفـار وفي المسـلمين. وقــول القائـل: إن المسلمين يدخلون الجنة بالإسلام فيقـال لـه: ليس كل المسـلمين يدخلون الجنة بلا عــذاب بل أهل الوعيد يــدخلون النـار ويمكثـون فيها ما شــاء الله مع كــونهم ليســوا كفــارا فالرجل الــذي معه شيء من الإيمان وله كبـائر قد يـدخل النـار ثم يخـرج منهـا: إما بشفاعة النبي صلى الله عليه وسـلم وإما بغـير ذلك ؛ كما قــال صلى الله عليه وسـلم: {شـفاعتي لأهل الكبـائر من أمـتي} وكما في الصحيح أنه قال: {أخـرج من النـار من في قلبه مثقـال ذرة من إيمان} وهكذا الوعيد في قاتل النفس والزاني وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور وغير هؤلاء من أهل الكبائر ؛ فإن هــؤلاء - وإن لم يكونــوا كفــارا - لكنهم ليســوا من المســتحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب. ومذهب أهل السنة والجماعــة: أن فسـاق أهل الملة ليسـوا مخلـدين في النـار كما قـالت الخـوارج

والمعتزلة وليسوا كاملين في الـدين والإيمـان والطاعة ؛ بل لهم حسنات وسـيئات يسـتحقون بهـذا العقـاب وبهـذا الثـواب ؛ وهـذا مبسوط في موضعه والله أعلم.

(ص680) سئل شيخ الإسلام: عن " بدعة المرازقة "
فأجاب: ثم إن جماعات ينتسبون إلى الشيخ " عثمـان بن مـرزوق " ويقولون: أشياء مخالفة لما كـان عليه وهو منتسب إلى مـذهب أحمد وكـان من أصـحاب الشـيخ عبد الوهـاب بن أبي الفـرج الشيرازي وهؤلاء ينتسبون إلي مـذهب الشـافعي ويقولـون أقـوالا مخالفة لمـذهب الشـافعي وأحمد ؛ بل ولسـائر الأئمة وشـيخهم هذا من شيوخ العلم والـدين له أسـوة أمثاله وإذا قـال قـولا قد علم أن قول الشـافعي وأحمد يخالفه وجب تقـديم قولـهما على قولـه مع دلالة الكتاب والسنة على قول الأئمة ؛ فكيف إذا كان القـول مخالفا لقوله ولقـول الأئمة وللكتـاب والسـنة. وذلك مثل قولـهم: ولا نقول قطعا ونقول نشـهد أن محمـدا رسـول الله ولا نقطع ونقول: إن السـماء فوقنا ولا نقطع ويـروون أثـرا عن علي وبعضهم يرفعه أنه قال: لا تقل قطعا وهـذا من الكـذب المفـترى باتفـاق أهل العلم ولم يكن شـيخهم يقـول هـذا بل هـذه بدعة أحـــدثها بعض أصـــحابه بعد موته وإذا قيل لواحد منهم: ألا تقطع قال: إن الله قادر على أن يغير هذه الفـرس فيظن أنه إذا قـال قطعا أنه نفي لقدرة الله على تغيير ذلك وهـذا جهل فـإن هـذه الفرس فرس قطعا في هذه الحال والله قـادر على أن يغيرهـا. وأصل " شـبهة هـؤلاء " أن السـلف كـانوا يسـتثنون في الإيمـان فيقول أحدهم: أنا مؤمن - إن شاء الله - وكانت ثغور الشام: مثل عسقلان قد سكنها محمد بن يوسف الفريـابي - شـيخ البخـاري - وهو صـاحب الثـوري وكـان شـديدا على المرجئة وكـان يـرى " الاستثناء في الإيمان " كشيخه الثوري وغيره من السلف. والنـاس لهم في الاسـتثناء " ثلاثة أقـوال ": منهم من يحرمه كطائفة من الحنفية ويقولــون من يســتثني فهو شــكاك. ومنهم من يوجبــه: كطائفة من أهل الحديث. ومنهم من يجـوزه - أو يسـتحبه - وهـذا أعدل الأقوال فإن الاستثناء له وجه صـحيح فمن قـال: أنا مـؤمن إن شاء الله وهو يعتقد أن الإيمان فعل جميع الواجبـات ويخـاف أن لا يكـون قائما بها فقد أحسن ولهـذا كـان الصـحابة يخـافون النفـــاق على أنفســـهم قـــال ابن أبي مليكـــة: أدركت ثلاثين من أصـحاب محمد صـلى الله عليه وسـلم كلهم يخـاف النفـاق على نفسه ومن اعتقد أن المؤمن المطلق هو الـذي يسـتحق الجنة ؛

فاستثنى خوفا من سوء الخاتمة فقد أصاب وهذا معنى ما يروى عن ابن مسعود أنه قيل لـه: عن رجل أنت مـؤمن ؟ فقـال: نعم فقيل له أنت من أهل الجنة فقـال أرجو فقــال: هلا وكل الأولى كما وكل الثانية ومن استثنى خوفا من تزكية نفسه أو مدحها أو تعليق الأمور بمشـيئة الله فقد أحسن ومن جـزم بما يعلمه أيضا في نفسه من التصـديق فهو مصـيب. والمقصـود أن أصل شـبهة هـؤلاء " الاسـتثناء في الإيمـان " كما عليه أهل ثغر عسـقلان وما يقـرب منها وعامة هـؤلاء جـيران عسـقلان ثم صـار كثـير منهم يسـتثني في الأعمـال الصـالحة فيقـول: صـليت إن شـاء الله وهو يخـاف أن لا يكـون أتى بالصـلاة كما أمر وصـنف أهل الثغر في ذلك مصــنفا - وشــيخهم ابن مــرزوق - غايته أن يتبع هــؤلاء ولم يكن هو ولا أحد قبله من أهل العلم يمتنعــــون أن يقولــــوا: لما يعلم أنه موجــود هــذا موجــود قطعا وقد نقل بعض الشــيوخ أنه كــان يســتثني في كل شــيء وكأنه يســتثني - والله أعلم - في الخبر عن الأمـور المسـتقبلة [لقولـه تعـالى] {لتـدخلن المسجد الحـرام إن شـاء اللـه} وقولـه صـلى الله عليه وسـلم {وإنا إن شـاء الله بكم لاحقــون ؟}. والــواجب موافقة جماعة المســلمين فإن قول القائل: قطعا بذلك مثل قولـه أشهد بذلك وأجزم بـذلك وأعلم ذلك ؛ فإذا قال: أشـهد ولا أقطع ؛ كـان جـاهلا ؛ والجاهل عليه أن يرجع ؛ ولا يصر على جهله ؛ ولا يخالف ما عليه علماء المسـلمين ؛ فإنه يكـون بـذلك مبتـدعا جـاهلا ضـالا. وكـذلك من جهلهم قولــــهم إن الرافضي لا يقبل الله توبته ؛ ويــــروون عن النــبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {سب أصـحابي ذنب لا يغفــر} ويقولــون: إن سب الصــحابة فيه حق لآدمي فلا يســقط بالتوبة ؛ وهذا باطل لوجهين: (أحـدهما) أن الحـديث كـذب باتفـاق أهل العلم بالحديث وهو مخالف للقرآن والسنة والإجمـاع ؛ فـإن الله يقـول في آيـتين من كتابـه: {إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} وبهذا احتج أهل السـنة على أهل البدع الذين يقولون: لا يغفر لأهل الكبـائر إذا لم يتوبـوا وذلك أن الله قال: {قل يا عبادي الـذين أسـرفوا على أنفسـهم لا تقنطـوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا} وهذا لمن تاب فكل من تـاب تـاب الله عليه ؛ ولو كـان ذنبه أعظم الـذنوب وقـال: {إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـاء} فهــذا في حق من لم يتب. (الثــاني) أن الحــديث لو كــان حقا فمعنـــــاه أنه لا يغفر لمن لم يتب منه فإنه لا ذنب أعظم من الشرك والمشرك إذا تاب غفر الله له شـركه باتفـاق المسـلمين كما قال تعالى: {فـإن تـابوا وأقـاموا الصـلاة وآتـوا الزكـاة فخلـوا

سبيلهم} وفي الأخرى {فإخوانكم في الـدين} ومعلـوم أن الكـافر الحـربي إذا سب الأنبيـاء ثم تـاب تـاب الله عليه بالإجمـاع فإنه كـان مسـتحلا لـذلك وكـذلك الرافضي هو يسـتحل سب الصـحابة فإذا تبين له أنه حرام واستغفر لهم بدل ما كـان منه بـدل الله سـيئاته بالحسـنات وكـان حق الآدمي في ذلك تبعا لحق الله ؛ لأنه مستحل لذلك ولو قدر أنه حق لآدمي لكان بمنزلة من تاب من القذف والغيبة وهذا في أظهر قولي العلمـاء لا يشـترط في توبته تحلله من المظلوم بل يكفي أن يحسن إليه في المغيب ؛ ليهـدم هـذا بهـذا. ومن البـدع المنكـرة تكفـير الطائفة غيرها من طوائف المسلمين واسـتحلال دمـائهم وأمـوالهم كما يقولـون: هـذا زرع البدعي ونحو ذلك فإن هذا عظيم لوجهين: (أحـدهما) أن تلك الطائفة الأخـــرى قد لا يكـــون فيها من البدعة أعظم مما في الطائفة المكفـرة لها ؛ بل تكـون بدعة المكفـرة أغلظ أو نحوها أو دونها وهـذا حـال عامة أهل البـدع الـذين يكفر بعضـهم بعضا فإنه إن قدر أن المبتدع يكفر كفر هؤلاء وهؤلاء وإن قدر أنه لم يكفر لم يكفر هــؤلاء ولا هــؤلاء فكــون إحــدى الطــائفتين تكفر الأخـــرى ولا تكفر طائفتها هو من الجهل والظلم وهـــؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شـيعا لست منهم في شـــيء}. (والثـــاني): أنه لو فـــرض أن إحـــدى الطــائفتين مختصة بالبدعة لم يكن لأهل السـنة أن يكفـروا كل من قال قولا أخطأ فيه فـإن الله سـبحانه قـال: {ربنا لا تؤاخـذنا إن نســينا أو أخطأنــا} وثبت في الصــحيح {أن الله قـــال: قد فعلت} وقال تعالى: {وليس عليكم جناح فيما أخطـأتم بـه} وروي عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {إن الله تجـاوز لي عن أمــتي الخطأ والنســيان} وهو حــديث حسن رواه ابن ماجه وغيره. وأجمع الصحابة وسـائر أئمة المسـلمين على أنه ليس كل من قـال قـولا أخطأ فيه أنه يكفر بـذلك وإن كـان قولـه مخالفا للسنة فتكفير كل مخطئ خلاف الإجماع ؛ لكن للناس نــزاع في مسائل التكفير قد بسطت في غير هـذا الموضـوع. و (المقصـود) هنا أنه ليس لكل من الطوائف المنتسبين إلى شيخ من الشـيوخ ولا إمام من الأئمة أن يكفروا من عداهم ؛ بل في الصحيح عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: {إذا قـال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما} وقـال أيضـا: {المسـلم أخو المسـلم لا يظلمه ولا يسـلمه كل المسـلم على المسـلم حـرام دمه وماله وعرضه}. وقال: {لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاســدوا وكونــوا عبــاد الله إخوانــا} وقــال: {مثل المؤمــنين في تــوادهم وتــراحمهم وتعـاطفهم: كمثل الجسد الواحد إذا اشـتكى منه عضو

تداعى له سائر الجسد بـالحمى والسـهر}. وليس للمنتسـبين إلى ابن مــرزوق أن يمنعــوا من مناكحة المنتســبين إلى العــوفي ؛ لاعتقادهم أنهم ليسوا أكفاء لهم بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان من هـؤلاء وغـيرهم كما قـال تعـالى: {يا أيها النــاس إنا خلقنــاكم من ذكر وأنــثى وجعلنــاكم شــعوبا وقبائل لتعـارفوا إن أكـرمكم عند الله أتقـاكم} وفي الصـحيح {أن النـبي صلى الله عليه وسـلم سـئل: أي النـاس أكـرم ؟ قـال أتقـاهم}. وفي الســنن عنه أنه قــال: {لا فضل لعــربي على عجمي ولا لعجمي على عـربي ولا لأبيض على أسـود ولا لأسـود على أبيض إلا بالتقوى الناس من آدم , وآدم خلق من تراب}.